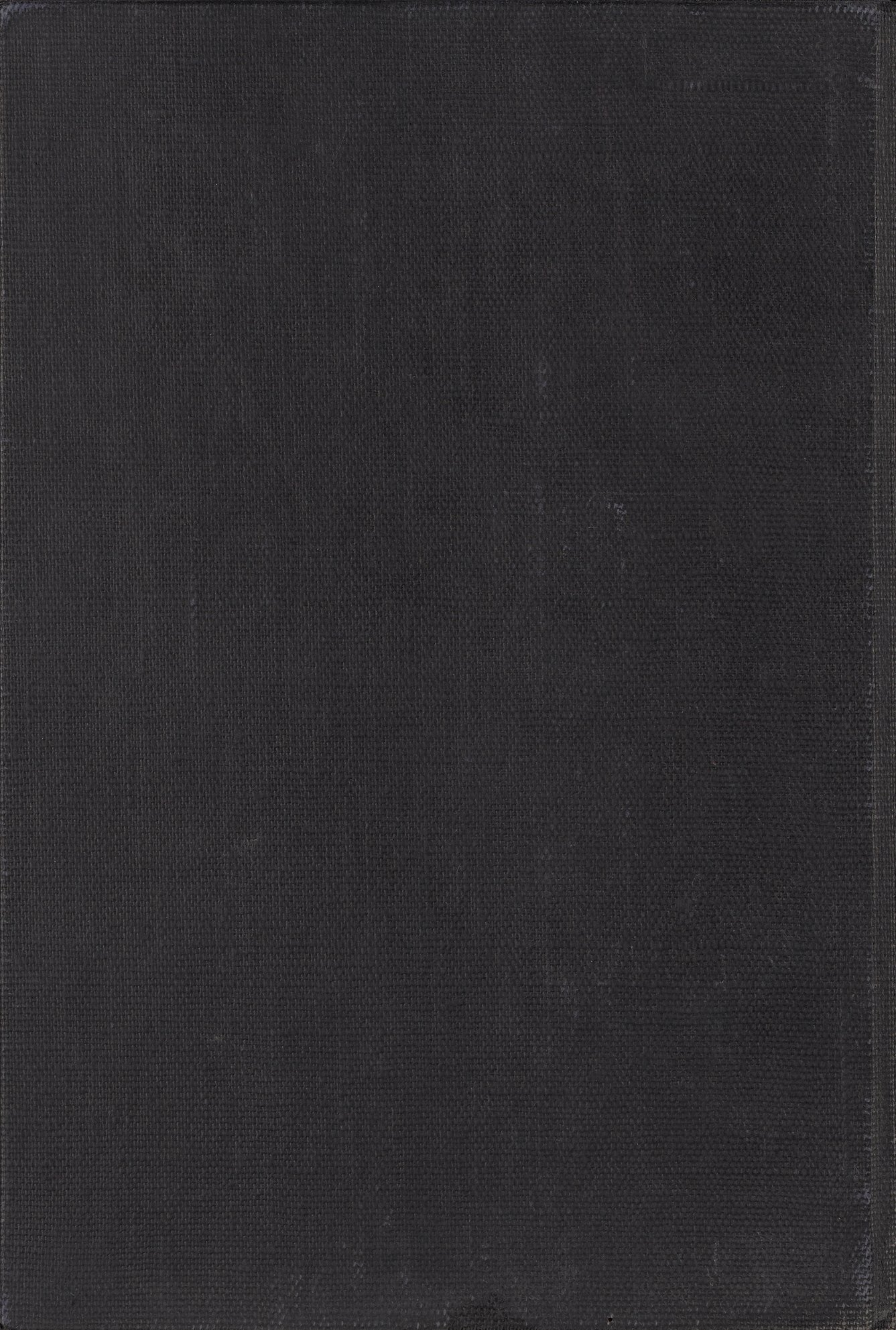
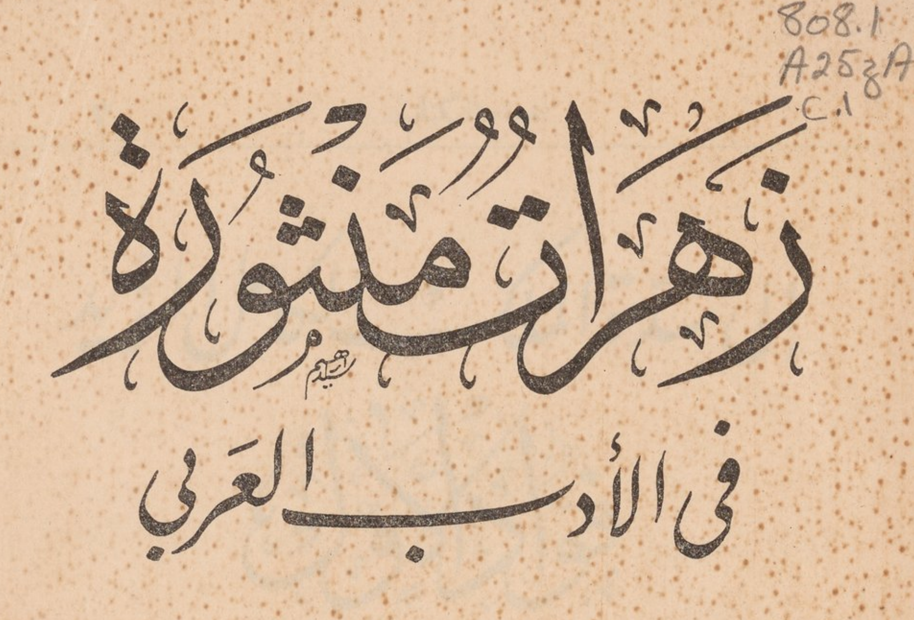






زهرات منثورة

فى الأدب العربى

وهى : تفصيل للمحاضرات التى ألقاها بكلية الشريعة

عبد الله عفيفى

المحرر العربى لديوان جلالة الملك

وأستاذ الأدب العربى بكلية الشريعة

وأستاذ الانشاء بقسم التخصص فى كلية اللغة العربية

الطبعة الأولى



طبع بمطبعة شركة
مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

باشر طبعه : محمد أمين عمران

سنة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م - رقم ٤٨٣

إلى سُدّة الملك الكامل المؤيّد

فؤاد الأول

أعزه الله

فِى ظِلِّكُمْ يا مَوْلاَىَ ائْتلَفَتْ حضارَةُ الشَّرْقِ وَالغرْب، وَتحتَ لِوائِكُمُ اسْتَوْثقَتْ أَوَاصِرُ الدِّينِ وَالْعِلْم، وَفِى إِشْرَاقِ عَهْدِكُمُ الكَرِيم، سارَ الأَدَبُ فى الجَدَدِ الْوَاضِح، وَالطَّرِيقِ القَوِيم.

وهٰذِهِ يا مَوْلاَىَ – زَهَرَاتٌ منْثُورَةٌ فِى الأَدَبِ العَرَبِى – قَطَفْتُها منْ دَوْحتِك، وَجمعْتُها فِى ساحتِك، وَأَجْنيْتُها طَلَبَةَ الأَزْهَرِ المُعتزِّ بِعَطْفِكَ، المُعتَصِمِ بِرِعَايَتِكَ، وَلَعَلَّهَا بالِغَةٌ أَسْمى الأَمَانِيِّ مِنْ كَرَم المُثُولِ، وَحُسْنِ القَبُول.

أَدامَ اللهُ بِوُجُودِكُمْ سَناءَ المُلْك، وَأَتَمَّ بِيُمْنِكُمْ صَلاَحَ الْوَطَن، وَأَقرَّ عيْنَكُمْ بِوَلِيِّ عَهْدِكُمْ، وَالكَوَاكِبِ الأَطْهارِ مِنْ سُلاَلَتِكُمْ، آمِين ؟

غرس نعمتكم

عبد الله الطبى

وبهذه الفطرة الصافية ، وذلك الوجدان الدقيق ، أدركوا ما فى القرآن الكريم من قوة وإعجاز ، فصرفوا أعنتهم عن معارضته أو تحديه .

وبفضل هذا التعاون الوثيق بين القائل والناقد ، بلغوا ذلك الشأو البعيد : من روعة القول ، وسحر البيان .

وللعرب فى النقد سبيلان : أحدهما ترك القول للرواة ، ينفون منه ما ينفون ، ويذيعون ما يذيعون . والثانى : الاحتكام الى أولى الرأى ، وتمحيص ما احتكموا فيه . وقد ساقوا من أمثال ذلك احتكامَ الأعشى وحسان والخنساء الى النابغة ـ وكانت تُضرب قبة فى عكاظ ، فيتوارد إليه الشعراء : ليستمع اليهم ، ويفاضل بينهم ـ واحتكامَ امرىء القيس وعلقمة بن عبَدة الى أمّ جُندَب الطائية زوج امرىء القيس ، وقد اختصما إليها فى أيهما أشعر ، فقالت : قولا شعراً تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة ، وروىّ واحد . فقال امرؤ القيس :

خليلَىَّ مُرَّابى علي أم جُنْدَب لنقضِىَ حاجاتِ الفؤاد المعذب

واندفع فى وصفه . وقال علقمة :

ذهبتِ من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقاً كلُّ هذا التجنب

واستفاض فى وصفه . فقالت لامرىء القيس : علقمةُ أشعر منك . قال وكيف ! قالت لأنك قلت :

فللسوط ألهوب (1) وللساق دَرة وللزجر منه وقعُ أخرجَ مُهْذِب

فجهدت فرسك بسوطك وزجرك وساقيك ، وقال علقمة :

[1] الالهوب : اجهاد الفرس فى جريه حتى يثير الغبار ، والدرة : شدة عدو الفرس حتى لايثنيه شىء ، والأخرج : ذكر النعام ، والمهذب : المسرع فى عدوه

فأدركهن ثانياً من عِنانه يمر كَمَرِّ الرائح المتحلِّب [١]

فأدرك فرسه ثانياً من عنانه، لم يضربه بسوط، ولم يتعبه.

ولعل أظرف مثل من أمثلة النقد فى الجاهلية ما كان من أهل يثرب حين رأوا النابغة يُقْوِى [٢] فى قصائده. فقد أوحَوا الى إحدى القيان أن تغنيه بهذه الأبياتَ من شعره – وفيها الاقواء.

أمنَ آل مية رائحٌ أو مغتد عجلانَ ذا زاد وغيرَ مزوَّدِ

زعم البوارح ان رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغراب الاسودُ [٣]

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتلقفته واتقتنا باليـدِ [٤]

بمخضب رخْصٍ كأن بنانه عَنَم يكاد من اللطافة يعقدُ [٥]

وقالوا: اذا بلغتِ الروى من كل بيت فمديه حتى يفطن له، فلما وفد النابغة الى يثرب واستمع الغناء أدرك ما فى شعره من إقواء، فلم يعد اليه. ومن ثَمت قال: وردت يثرب وفى شعرى بعض العُهدة، فصدرت عنها وأنا أشعر الناس:

وكانت قبائل العرب يفاخر بعضها بعضاً بخطبائها وشعرائها، وفى ميادين هذه المفاخرة يظهر النقد والموازنة ليُعرف السابق والمسبوق.

وفى العصر النبوى، وما يليه من عصر الخلفاء الراشدين سار النقد

---

[١] المتحلب: طالب الحلبة، وهى الدفعة من الخيل [٢] الأقواء: اختلاف الروى بالضم والكسر [٣] البارح من الطير: ماظهرت لك مياسره، والسانح: ماظهرت لك ميامنه. وكان العرب إذا أرادوا كشف حجاب المستقبل يحصبون غرابا أو نحوه بحصاة ليعرفوا أسانح هو أم بارح. وأكثر العرب يتفاءلون بالسانح، ويتطيرون بالبارح، والأقلون على نقيض ذلك [٤] النصيف: شقة من الثياب تتجلل بها المرأة فوق ثيابها [٥] المخضب: وصف لموصوف محذوف: أى بكف مخضب، ورخص: ناعم. والعنم: شجر رطب الأغصان نظيفها له نوّار أحمر دقيق الأطراف.

على هذا السَّنَنِ من تحكيم أولى الرأى أو تمحيصه على ألسنة الرواة .

وقد ظهرت فى العهد الأموى أندية النقد والمفاضلة بين الشعراء بالمدينة ، والبصرة ، والكوفة ، وفى معاهد الحج من مكة ، وفى هذه المواطن نبه شعراء ، وأخمل آخرون .

وساهم النساء فى النقد الأدبى ، وكان أثرهنّ فيه أنفذ من أثر الرجال ، ومن هؤلاء سُكَينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ، وهند بنت المهلب ، وفاطمة بنت عبد الملك ، وعَمْرة الجمَحِية ـ ، وكان يجتمع اليها الشعراء والرواة فى دارها ، فتستمع لكل ، وتوازن بينهم جميعاً .

وكما فضّلت أم جُنْدَب علقمة بن عبدة على زوجها امرئ القيس ـ فَضلت النّوَار بنت أعين جريرا على زوجها الفرزدق حين سألها : أينا أشعر ؟ أنا أم جرير ! فقالت أن جريراً شاركك فى مره ، وانفرد عنك فى حُلوه [1]

ومن طرائف النقد ما حدّثوا أن كُثَيِّراً خرج الى البادية ، فَدفع به طريقه الى خباء اقطام ابنة علقمة ، فنزل بها وعرّفها بنفسه ، فقالت له : أنت كثير ؟ ! أنت الذى تقول !

فما روضة بالحَزْن باكرها الندى [2] يمج الندى جثجاثُها وعَرارُها
بأطيبَ من أردان عزة مَوْهِناً [3] اذا أُوقدت بالمندَل الرطب نارُها

قال نعم . قالت : وهل أبقيت لعزة من الفضل فوق ما لهذه اللّبِنَة الملقاة ! أولا تراها إذا أوقد المندل الرطب فوقها عبق منها ما يعبق من عزة ؟ ! هلا

---

[١] تريد أنه شاركه فى هجائه وانفرد عنه بنسيبه وعتابه .

[٢] الحزن : الأرض الصلبة ، والجثجاث : نبت أصفر طيب الرائحة تحبه العرب والعرار : البهار [٣] الأردان : جمع ردن ـ بضم الراء ـ : الأكمام ، وموهنا : أى عند انتصاف الليل ، والمندل : العود .

قلت كما قال امرؤ القيس :

ألم تريانى كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وان لم تَطَيَّب

فخرج كثير مستحيياً .

وكان من شأن المنافرة التى استعرت بين جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وظهور الشعراء الغزليين : كعمر بن أبى ربيعة ، وجميل ، وكثير — كان من شأن ذلك أن أثار روح النقد ، والتجريح ، والموازنة ، والمفاضلة ، واظهار المحاسن والمآخذ ، مما كان له الأثر القوى فى قوة الشعر وازدياد ثروة الأدب .

وفى العصر العباسى — عصر الجدل ، والمنطق ، والفلسفة — بدءوا يؤلفون فى النقد وحده . وكان أول كتاب أخرج فى ذلك كتاب معانى الشعر للأصمعى ، وقد وازن فيه بين معانى الشعر المتواردة ، وأرجع بعضها الى بعض ، واستطرد إلى مآخذ الأولين فى الالفاظ والمعانى .

وأخرج محمد بن سلام الجُمَحى البصرى المتوفى عام ٢٣٢ كتابه فى طبقات الشعراء ، ومنازلهم ، ومذاهبهم . وأعقبه محمد بن مسلم بن قُتَيبة المتوفى سنة ٢٧٦ بكتاب آخر فى طبقات الشعراء . قال فى مقدمته : هذا كتاب ألفته فى الشعراء ، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم ، وأقدارهم ، وأحوالهم فى أشعارهم ، وقبائلهم ، وأسماء آبائهم ، ومن كان يعرف باللقب أو الكنية وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره ، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ فى ألفاظهم وما سبق اليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون ، وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التى يختار الشعر عليها ، ويستحسن لها ، إلى غير ذلك . . .

وألف ابن المُعتزّ رسالة فى محاسن أبى تمام ومساويه ، انتهى منها إلى قوله : « فأما قولنا فيه فانه بلغ غايات الاساءة والاحسان » .

وجاء فى أثره أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى المتوفى عام ٣٧٠ فأخرج كتاب الموازنة بين الطائيَّين (أبى تمام والبحترى) وازن فيه بين الرجلين ، وأوضح نهج كل منهما فى شعره ، ومآخذ خصومه عليه .

وفى هذا العصر : أخرج الكاتب البغدادى (أبو الفرج : قدامة ابن جعفر) كتابيه « نقد النثر ونقد الشعر » وقد قال فى مقدمة كتابه الثانى : العلم بالشعر ينقسم أقساماً ، فقسم ينسب الى علم عروضه ووزنه ، وقسم ينسب إلى علم قوافيه ومقاطعه ، وقسم ينسب الى غريبه وإعرابه ، وقسم ينسب إلى علم معانيه والقصد به ، وقسم ينسب إلى جيده ورديئه ، وقد عنى الناس بوضع الكتب فى القسم الأول ، وما يليه الى الرابع عناية تامة ، فاستقصوا أمر العروض والوزن ، وأمر القوافى والمقاطع ، وأمر الغريب والنحو ، وتكلموا فى المعانى الدال عليها الشعر ، وما الذى يريده بها الشاعر ، ولم أر أحدا وضع فى نقد الشعر ، وتخليص جيده من رديئه كتابا ، وكان الكلام عندى فى هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة . .

وفى القرن الرابع : أخرج الكاتب أبو عبدالله محمد بن عمران بن موسى المرزُبانى كتاب «الموشح» فى مآخذ العلماء على الشعراء ، وقد ألم فيه بما أخذ على الشعراء المعروفين فى الجاهلية والاسلام ، وقابل سيئات كل شاعر بحسنات غيره فى المعنى الذى قصد له .

وكان ظهور أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبى فى القرن الرابع ،

ونزوعه إلى التجديد فى أسلوب الشعر ، وأغراضه ، ومعانيه ، وتعثره فى بعض ماجاء به - مثاراً لكثير من النقد والجدل ، بين متشيع له ، ومتعصب عليه ، ومنوه به ، وزارٍ عليه ، حتى بلغ ما كتب عن شعره ، شرحا ونقداً نَيِّفا وخمسين كتابا . وكان من أشد الناعين عليه : الصاحب اسماعيل ابن عباد ، فقد ألف رسالة فى مساوىء شعر المتنبى خلط فيها الرأى بالهوى حتى أحال حسنات الشاعر العظيم الى سيئات ، وكان ذلك مما دعا القاضىَ أبا الحسن على بن عبد العزيز الجُرجانى الى تأليف كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » اعتدل فيه بين الفريقين ، ونهج لهما الطريق السوى فى البحث والنقد ، ووازن بين سيئات المتنبى وحسناته ، واستخلص من هذه الموازنة : سمو منزلة المتنبى ، وجلال مكانه - وهذا الكتاب أجلّ ما كتب فى النقد والموازنة .

وفى العهد الذى ظهر فيه كتاب الوساطة ظهر كتاب «العمدة» لابن رشيق القيروانى . المولود بالمهدية من أعمال تونس عام ٣٩٥ ، والمتوفى بمازر (إحدى قرى صقلية) سنة ٤٥٦ .

وهذا الكتاب من أمثل الكتب فى صناعة الشعر ونقده ، واليه يرجع المحدثون من الأدباء فيما يكتبون عن الشعر ومآخذه .

وأكثر ما أخرج بعد هذه الكتب من كتب النقد ، فاليها مآله ومنها مستقاه .

٣ - متناول النقد

يتناول النقد كل ما احتوته اللغة من فنون العلم والأدب . وقد يتناول الناقد أمة بأسرها فى أصول أدبها أو بعض عصوره ، وقد يختص

واحدا منها ، فيحيط بكل أدبه ، أو ببعض نواحيه ، ويشمل النقد من الكلام لفظه ، وأسلوبه ، ومعناه ، وغرضه . وان كان القائل خطيباً أو منشداً للشعر تناول النقد فوق ذلك : موقفه ، ومنطقه ، وهيئته ، وشارته ، وحركته ، وإشارته ، وعارضته ، وبديهته ، وتوزيع صوته على مختلف أغراضه ، وتفقده لسامعيه ؛ وأدبه فى خطاب الملوك ومَن اليهم من ذوى الجاه .

وكانوا فى الدولة العباسية يدِقّون فى نقد الكُتّاب ، حتى يتناولوا تناسب أبدانهم ، وتناسق ثيابهم ، وتأليف أعطارهم ، ومواطن حركاتهم وسكناتهم ، وحسن تندرهم فى مجالس السمر ومناقلة الحديث ، ولباقتهم فى مجالس الخلفاء والرؤساء ، لأنهم صدور الدولة وسُمّار الملوك ، ومنهم الوزراء ، وأعوان الوزراء . وربما تجاوز الناقدون ذلك كله . فجعلوا وطن الأديب ، ونشأته ، وآله ، وعشيرته ، ونسبه ، ودينه ، ومذهبه ، وما الى ذلك مما يلابسه من جميع نواحيه معرضاً للنقد ، لأن لكل ذلك أثراً بينا فى أدب الأُديب .

نقد اللفظ

وقد تناول النقدة من اللفظ فساده وصحته ، ونفرته وسماحته ، وقلقه ورصانته ، وابتذاله وندرته ، ومقدار مناسبته للمعنى الذى وضع له . وان كان اللفظ قافية نظروا إلى مدى استمساكها بالبيت الذى اشتمل عليها ، وَمدى حاجته اليها ، ومبلغ اتساقها بالقوافى التى سبقتها أو لحقتها . . .

واختُلف فى العرب : هل يتناول نقدهم نقد اللفظ فى فساده وصحته ؟

وهل هم خاضعون لما تواضعوا عليه من قوانين الأعراب ؟ أم هم حجة على

مَن خَلَفَ مِن بعدهم ، لهم أن يقولوا وعلينا أن نستشهد ونستدل . والحق أن العربى مجبول بفطرته على الخضوع لما سنه آباؤه ، وتواضع عليه قومه . .

غير أن أميّته ، وإلقاءه القول أحياناً فى معرض البديهة والارتجال ، وفى موطن الروع والهول ، قد تمنعانه المراجعة والتهذيب . وقد يغلبه السهو وتلجئه الضرورة ، فيأتى بالكلمة النابية عفواً ، ولو فطِنَ لها ، أو نُبِّه اليها لعرفها وانصرف عنها ، كما فعل النابغة حين دله أهل المدينة على مواطن الإقواء فى شعره . فالعربى يخطىء كما يخطىء الناس ، ولا تقل فى الكلمة الخاطئة انها لغة نَدَّت عن اللغة الغالبة ، فان مما يأباه العقل أن يجرى الشاعر فى شعره كله على لغة قومه إلا فى كلمة أو كلمتين يتبع فيهما آخرين . وما عسى أن يقول القائل فى قول امرىء القيس :

فاليوم أشربْ غير مستحقب ... إثما من الله ولا واغل

فجزم الفعل ولا جازم له .

ومثله فى الجزم بغير جازم قول لُبَيد :

تَرَّاكُ أمكنةٍ إذا لم أَرْضَها ... أو يرتبطْ بعضَ النفوس حِمامُها

وقول طَرَفة :

خلالكِ الجو فبيضى واصفِرى ... ونقرى ما شئْتِ أن تنقرى

قد رُفع الفخ فما ذا تحذرى

فحذف نون الفعل المرفوع .

وقول النابغة :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة ... من الرُّقش فى أنيابها السم ناقع

فأجرى الرفع على ناقع ، ومن حقها النصب على الحال .

وقول الطرِّمَّاح :

وأكره أن يعيب عليَّ قومى هجاى الأرذلين ذوى الحِنات

يريد بالحنات الاحن جمع إحنة ، وأشباه هذا كثير .

ومن الألفاظ التى أخل فسادها بمعناها قول النابغة فى وصف جيش :

فيه الرماح وفيه كل سابغة جدلاء مُحْكمةٍ من نسج سلاَّم [١]

فالذى لان الحديد له حتى نسج الدروع منه ، هو داود عليه السلام ، فانحرف عنه الى سليمان ، وانحرف عن سليمان الى سلام ، وكل ذلك من جناية القافية . ويذكرنا هذا الانحراف برجل استأذن على سليمان بن وهب ليعزيه عن أمه ، فأذن له . فقال :

لأم سليمان علينا مصيبة مفلِّقة مثل السيوف البواتر

وكنت سراج البيت يا أم سالم فأضحى سراج البيت وسط المقابر

فاشتد الكرب بسليمان ، حتى قال لمن حوله : مالقيت من هذا الرجل ! رثى أمى بهذا القول ، وغير اسمى من سليمان الى سالم :

ومثال ذلك من جناية القافية قول دُرَيد بن الصِّمَّة :

فان تُعقب الأيام والدهر تعلموا بنى قارب أنا غضاب بمَعْبَد

فالذى قتله بنو قارب ، وغضب له دريد هو أخوه عبد الله ، فحولته القافية الى معبد .

ومن الالفاظ التى خَفِيَت فلم تُبِنْ ، وأشكلت فلم تُفْصح ـ قول أبى تمام :

سَقى العهدَ منك العهدُ والعهدُ والعهدُ لياليَنا ؟ بالرقْمتين وأهلِها

فقد أراد أن يظرف فَسَمُج ، وأن يجانس فسخف ، وإنما أراد بالعهد

[١] يريد بالسابغة : الدرع الضافية الوثيقة النسج .

الأول من عهوده الثلاثة : عهد الوصال ، وبالثانى عهد القسم الذى تقاسموا على الوفاء عليه ، وبالثالث المطر : وجمعه عهاد .

ومن الألفاظ النافرة التى نَبَت عن السمع ، ونَدَّت عن الذوق قول العتابى :

فُتّ المادح الا أن ألسننا مستنطقات بما تخفى الضمائير

فالمادح سيئة المأخذ . والوجه المدائح ، ومستنطقات نافرة مستكرهة ووجهها نواطق ، والضمائير جمع ثقيل .

ومن الألفاظ النابية عن الذوق قول المتنبى :

انى على شغفى بما فى خُمْرها لأعِفّ عما فى سراويلاتها

فذِكر السراويلات فى موطن العفة لاعفة فيه .

ومن الألفاظ المجلوبة فى غير موضعها ، فجاءت قلقة لا رصانة فيها قول أبى عَدِى القرشى :

فوُقيت الحتوفَ مِن وارثوا لِ وابقاك صالحا ربُّ هود

فهو يدعو لصاحبه أن يوقّى الحتوف من وارثه ووليه ، وليس الوارث الولى مظنّة العدوان ، وان جاء منه نادرا ، ولكن الذى تُخشى بوادره ، وتُتقى عواديه : هو العدوّ الحاسد ، ومن عجب ألا يجد لوصف الله جل شأنه إلا قوله : رب هود ! وما أذكره هودا إلاّ القافية .

ومن الألفاظ العامية المبتذلة قول أبى تمام :

فلو ذهبت سِنَات الدهر عنه وألقى عن مناكبه الدثار

لعدّل قسمة الأرزاق فينا ولكن دهرنا هذا حمار

فألفاظ هذا البيت نابية هابطة ، وسوقية مبتذلة .

وسنورد عليك الكثير الموفور من اللفظ المهذب المختار الذى اكتملت

به سمات المحاسن حين نعرض لنقد الأسلوب ، ونسوق من مختاره — ان شاء الله :

نقد الأسلوب

للأسلوب مناح مختلفة ، وصور متباينة :

فهنالك أسلوب الشعر الذى يستملي المشاعر الكامنة ، ويعتمد على الاحسان فى المجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، ويستقى من الطبع المواتى والخيال البعيد ، ويستمد روعته ، وصفاء ديباجته من تناسق الكلام وانسجامه ، وحسن تقسيمه وتفصيله ، ودقة مقابلته ، ولطف تعليله ، وقوة نسجه ، واتزان قافيته ، والبراعة الكاملة فى ابتدائه وانتهائه .

وهناك أسلوب النثر : وفى النثر الأسلوب العلمى الذى يعتمد على افهام المعنى بأوضح لفظ ، وأيسر سبيل ، ويكون أبعد ما يكون عن زخرف اللفظ ، والذهاب فى فنون التشبيه ، والمجاز ، والكناية .

والأسلوب الصحفى : الذى يعتمد على قوة المنطق ، وخلابة القارىء ، وتشويقه ، واستدراجه ، وحسن الانتقال به ، حتى يشعر بالجديد فى كل شىء .

والأسلوب الخطابى : الذى يعتمد على مخاطبة العاطفة ، واثارة المشاعر وتفخيم اللفظ وترديده ، والاعتماد على مايملك لب السامع من الاسماء الشيقة والصفات المحبوبة .

وأسلوب الرسائل الأدبية ، والمقامات الخيالية ، والقصص الروائية :

التى تستمد محاسنها من الشعر ، بل هى بما اشتملت عليه من محاسن اللفظ ،

وتنسيقه ، وتفصيله الى فقرات متناسبة ـ شعر منثور .

ومن الأسلوب الذى استوفى كل سمات الشعر ، وجمع البديع الريق من مزاياه قول أبي نواس يصف قوما ناموا على رحالهم :

ركب تساقوا على الأكوار بينهم
كأس الكرى فانتشى المسقى والساقي (١)

كأن هامهمُ والنومُ واضعها ... على المناكب لم تخلق بأعناق (٢)

ساروا فلم يقطعوا عقدا لراحلة ... حتي أناخوا اليكم قبل إشراق (٣)

من كل جائلة النسعين ضامرة ... مشتاقة حملت أوصال مشتاق (٤)

وقول جرير فى العتاب :

وقائلةٍ والدمعُ يغسل كحلها ... أبعدَ جرير تكرمون المواليا (٥)

فردى جمال الحي ثم تحملى ... فمالك فيهم من مقام ولاليا (٦)

وإنى لمغرور أعلَّ بالمنى ... ليالى أرجو أن مالكَ ماليا

فأنت أخى مالم تكن لِىَ حاجةٌ ... فان عرضت أيقنت ان لا أخاليا

بأى نجاد تحمل السيف بعد ما ... قطعتَ القُوى من مَحْمَلٍ كان باقيا

[١] الكور : الرحل بأداته ، والبيت كله مبنى على الاستعارة . واللفظ كله مهذب مختار ، وفيه صورة رائعة من القوم اذا أدركهم فتور النوم ثم ناموا [٢] الهام : جمع هامة : الرأس ، والبيت مبنى على المجاز والتشبيه [٣] عقد الرحل عقدته ، وفيه كناية عن مواصلة السير لأنهم لم يقطعوا عقدا لراحلة : أى لم ينيخوها و ينزلوا رحلها . [٤] النسع : سير مضفور تشد به الرحال ، وجولان النسعين كناية عن النحول ، والضمور : الهزال ولحاق البطن ، والأوصال : المفاصل . واحدها وصل بسكون الصاد وضم الواو أو كسرها ، وهو بهذه الكناية البديعة قد وصف القوم بشدّة الضعف ، حتى كأنهم الهياكل التى لم يبق منها إلا المفاصل [٥] الموالى : جمع مولى ومعناه هنا ابن العم [٦] تحمل : ارتحل

بأى سنان تطعن القَرْمَ بعدما[١] نزعت سنانا من قناتك ماضيا
ألم أكُ نارا يصطليها عدوكم وحرزا لما ألجأتُمُ مِن ورائيا[٢]
وباسطَ خير فيكم بيمينه وقابضَ شر عنكم بشماليا
اذا سركم أن تمسحوا وجه سابق[٣] جواد فمُدوا وابسطوا من عنانيا
ألا لا تخافوا نَبْوة فى مُلمةٍ[٤] وخافوا المنايا أن تفوتكُمُ بيا

فانظر إلى هذا الأسلوب : كيف رق ماؤه ، وتم صفاؤه ، وكيف ائتلفت أوائله وتواليه ، واستمسكت حواشيه وقوافيه .

وقول أبى تمام فى المدح :

ان الخليفة لما صال كنتَ له[٥] خليفة الموت فيمن جار أو ظلما
أضحكت منهم ضباع القاع ضاحية بعد العُبُوس وأبكيت السيوف دما
مشت قلوب أناس فى صدورهم لما رأوك تَمَشَّى نحوهم قُدُما
أمطرتهم عزمات لو رميت بها يوم الكريهة ركنَ الدهر لانهدما
اذا همُ نكصوا كانت لهم عُقُلاً وان همُ جمحوا كانت لهم لُجُما
حتى انتهكت بحد السيف أنفسهم جزاء ما انتهكوا من قبلك الحُرُما

فهذا من الأسلوب الجزل الرصين الذى أخذ بعضه بحُجُزات بعض ، ولم يخل بيت فيه من استعارة أو تشبيه .

[١] القرم : السيد الشريف . [٢] يريد أنه وقف بينهم و بين العدوّ يدرأ عنهم ويحمل عليه . [٣] السابق : ما أتى فى طليعة الحلبة ، وبسطت عنان الفرس : أى أطلقته .
[٤] يقول ان كل ملمة فى غيرى هينة ، ولكن المصيبة التى تخشى هى التى تصيبكم فىّ .
[٥] يخاطب اسحق بن ابراهيم المصعبى قائد المعتصم .

وقول البحتري في النسيب :

لما مشين بذى الأراك تشابهت أعطاف قضبان به وقدودِ
في حلتى حبَر [1] ووشي فالتقى وشيان وشيُ رُبًى ووشي بُرُور
وسفرن فامتلأت عيون راقها وردان ورد جَنًى وورد خدود
ترجو مقابلة الحبيب ودونه وخدٌ يبرِّح بالمَهَارَى القُود [2]
ومتى يساعدنا الوصال ودهرنا يومان يوم نوًى ويوم صدود

فانظر إلى هذا الشعر ، كيف تجد روعة الفن ، وقوة النسج ، وصفاء الديباجة ، وحسن التقسيم ،

وقول شوقي في رثاء مقدونيا

مقدونياً - والمسلمون عشيرة - كيف الخئولة فيك والأعمام
أتريْنهم هانوا ! وكان بعزهم وعلوهم يتخايل الاسلام
اذ أنت ناب الليث كلُّ كتيبة طلعت عليك فريسة وطعام
ما زالت الأيام حتى بُدِّلَتْ وتَغَيَّرَ الساقى وحال الجام
أرأيت كيف أديلَ من أسد الشَّرى وعهدت كيف أبيحت الآجام
زعموك همّا للخلافة ناصبا وهل الممالك راحة ومنام ؟
ويقول قوم كنت أشأم مورد وأراك سائغة عليك زحام

ومن النثر الخطابي : الذي يملأ الأسماع رخامة وفخامة ، قول السيدة

---

[1] الحبر : جمع حبرة وهي برد مرقوم من برود اليمن [2] الوخد : ضرب من سير الابل واسع الخطى ، والمهارى من الابل جمع مهرى - بفتح الميم وكسر الراء - نسبة الى مهره حى من العرب تنسب اليه كرائم الخيل

بأى سنان تطعن القرمَ بعدما[١] نزعت سنانا من قناتك ماضيا
ألم أكُ نارا يصطليها عدوكم وحرزا لما ألجأتمُ مِن ورائيا[٢]
وباسطَ خير فيكم بيمينه وقابضَ شر عنكم بشماليا
اذا سركم أن تمسحوا وجه سابق[٣] جواد فمُدوا وابسطوا من عنانيا
ألا لا تخافوا نبْوة فى مُلمةٍ[٤] وخافوا المنايا أن تفوتكمُ بيا

فانظر إلى هذا الأسلوب : كيف رق ماؤه ، وتم صفاؤه ، وكيف ائتلفت أواليه وتواليه ، واستمسكت حواشيه وقوافيه .

وقول أبى تمام فى المدح :

ان الخليفة لما صال كنتَ له[٥] خليفة الموت فيمن جار أو ظلما
أضحكت منهم ضباع القاع ضاحية
بعد العُبُوس وأبكيت السيوف دما
مشت قلوب أناس فى صدورهم لما رأوك تَمشّى نحوهم قُدُما
أمطرتهم عزمات لو رميت بها يوم الكريهة ركنَ الدهر لانهدما
اذاهمُ نكصوا كانت لهم عُقُلاً وان همُ جمحوا كانت لهم لُجُما
حتى انتهكت بحد السيف أنفسهم جزاء ما انتهكوا من قبلك الحُرُما

فهذا من الأسلوب الجزل الرصين الذى أخذ بعضه بحُجُزات بعض ، ولم يخل بيت فيه من استعارة أو تشبيه .

---

[١] القرم : السيد الشريف . [٢] يريد أنه وقف بينهم و بين العدوّ يدرأ عنهم ويحمل عليه . [٣] السابق : ما أتى فى طليعة الحلبة ، وبسطت عنان الفرس : أى أطلقته .
[٤] يقول ان كل ملمة فى غيرى هينة ، ولكن المصيبة التى تخشى هى التى تصيبكم فىّ .
[٥] يخاطب اسحق بن ابراهيم المصعبى قائد المعتصم .

وقول البحتري في النسيب :

لماشين بذى الأراك تشابهت أعطاف قضبان به وقدود

في حلتى حبر (١) ووشى فالتقى وشيان وشى ربى ووشى برود

وسفرن فامتلأت عيون راقها وردان ورد جنى وورد خدود

ترجو مقابلة الحبيب ودونه وخد يبرح بالمهارى القود (٢)

ومتى يساعدنا الوصال ودهرنا يومان يوم نوى ويوم صدود

فانظر إلى هذا الشعر ، كيف تجد روعة الفن ، وقوة النسج ، وصفاء الديباجة ، وحسن التقسيم ،

وقول شوقي في رثاء مقدونيا

مقدونيا - والمسلمون عشيرة - كيف الخئولة فيك والأعمام

أتريهم هانوا ! وكان بعزهم وعلوهم يتخايل الاسلام

اذ أنت ناب الليث كل كتيبة طلعت عليك فريسة وطعام

ما زالت الأيام حتى بدلت وتغير الساقى وحال الجام

أرأيت كيف أديل من أسد الشرى

وعهدت كيف أبيحت الآجام

زعموك هما للخلافة ناصبا وهل الممالك راحة ومنام ؟

ويقول قوم كنت أشأم مورد وأراك سائغة عليك زحام

ومن النثر الخطابي : الذى يملأ الأسماع رخامة وفخامة ، قول السيدة

---

[١] الحبر : جمع حبرة وهى برد مرقوم من برود اليمن [٢] الوخد : ضرب من سير الابل واسع الخطى ، والمهارى من الابل جمع مهرى - بفتح الميم وكسر الراء - نسبة الى مهره حى من العرب تنسب اليه كرائم الخيل

أم كلثوم بنت على (١) رضى الله عنهما من خطبة لها فى أهل العراق ، وكانوا قد اجتمعوا حولها يبكون بعد مقتل أخيها ، وهم الذين خذلوه وأسلموه ؛ فكان من قولها لهم :

أما بعد فيا أهل الكوفة : يا أهل الخَتْر (٢) والخَذْل ، لا ، فلا رقأت العبْرة ، ولا هدأت الرَّنَّة ، إنما مثلكم كمثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا (٣) - تتخذون أيمانكم دخلا بينكم - (٤) ألا وهل فيكم إلا الصَّلَفُ ، والشَّنَفُ ، وملَقُ الإماء ، وغَمْزُ الأعداء (٥) . ؟ وهل أنتم إلا كمرعًى على دِمنة ، وفِضَّة على ملحودة (٦) . ؟ ألا ساءَ ما قدَّمتْ أنفسُكم أنْ سخطَ الله عليكم . وفى العذاب أنتم خالدون . . أتبكون . ؛ إى والله ، فابكوا ، وإنكم والله أحْرِياء بالبكاء ، فابكوا كثيرا واضحكوا قليلا . . فلقد فزتم بعارها وشَنارها (٧) . ولن

[١] هى حفيدة رسول الله صلى الله عليه وسلم و بنت سيدة النساء فاطمة الزهراء ، ولدت فى أخريات العهد النبوى ، تزوجها عمر رضى الله عنه فى خلافته ، وهى لم تزل حدثة دون البلوغ ، وما أراد الا أن يصل نسبه وسببه برسول الله ، فلما قتل عمر خلفته على ابن عمها عوف بن جعفر بن أبى طالب فمات عنها ، ثم أعقبته على أخيه محمد بن جعفر فمات عنها ، فخلفته على أخيه عبد الله - بعد أن ماتت عنه أختها زينب - فماتت عنه [٢] الختر : الغدر والخديعة [٣] التى نقضت غزلها أنكاثا هى امرأة من قريش كانت فى سعة من العيش ، وكانت تجتلب الصوف فتغزله ، ثم تنقض ما تغزله ، فضرب بها المثل فى الخرق . ومن أمثال العرب : خرقاء وجدت صوفا [٤] الدخل الغش والمكر والخديعة ، ومعنى الجملة أنهم يتوسلون باليمين إلى مآربهم [٥] الصلف : الغلو فى التظرف مع الكبر ، وفى المثل آفة الظرف الصلف ، والشنف البغض والتنكر عمن تعرفه [٦] الملحودة القبر ، وكانت اليهود تموّه قبورها أحيانا بالفضة ، ومعنى الجملتين حسن المظهر ، وسوء المخبر

[٧] الشنار أقبح العيب ، وأكثر ما تكون هذه الكلمة مجتمعة مع العار

ترْحضوها (١) بغسل بعدها أبدا ، وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرِّسالة ، وسيد شباب أهل الجنة ؛ ومَنارِ محَجتكم ، ومدْرهِ حجتكم (٢) ، ومُفْرِخ نازلتكم (٣) ؛ فتعساونكسا ؛ لقد خاب السعي ؛ وخسِرَت الصفقة ، وبؤتم بغضب الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة . ـ لقد جئتم شيئا إدًّا (٤) تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ـ أتدرون أىّ كبد لرسول الله فريتم ! وأىّ كريمة له أبرزتم ، وأى دم له سفكتم ؟ ! لقد جئتم بها شوْهاء . خرقاء (٥) ؛ شَرُّها طلَّاع الأرض والسماء ؛ أفعجبتم أن قطرت السماء دما ! — ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون — . . .

ومن النثر : الذى ارسل إرسالا ، فجاء على أحسن مايكون النثر الأدبى حسن نسق ، ودقة تقسيم . قول عثمان بن عفان رضى الله عنه يصف المتألبين عنه :

هؤلاء النفر رَعاع ، تطامنت لهم تَطَامن الذليل ، وتلدَّدت لهم تلدد المضطر (٦) ، أرا نيهِمُ الحقُّ إخوانا ، وأراهم الباطل إياى شيطانا ، أجررت المرْسِنَ رَسَنه (٧) ، وأبلغت الراتع مُستقاه ، فتفرقوا على فرقا ثلاثا : فصامت وصمته أنفذ من صوْل غيره ، وساع أعطانى شاهده ، ومنعنى غائبه ، ومرخَّصٌ له فى أمر زُيِّنَ فى قلبه ، فأنا منهم بين ألسن لداد ، وقلوب شداد ، وسيوف حداد . عذيرى الله منهم (٨) ، لا ينهى عالم

[١] رحض الثوب : غسله [٢] المدره : المقدم فى اللسان واليد عندالخصومة [٣] افراخ النازلة تفريجها [٤] الاد والادة : العجب والأمر الفظيع والداهية . [٥] الضمير فى بها : عائدعلى محذوف يريدبه الفتنة [٦] تلددت : تلفت يميناوشمالا [٧] الرسن الحبل : أى ترفقت بهم ، وتركت أمرهم لهم [٨] عذيرى الله منهم : أى الله منصفى منهم .

جاهلا ، ولا يردع حليم سفيها ، والله حسبى وحسبهم - يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعذرون - .

ومن نثر الرسائل المهذب المختار : قول محمد بن حُمَيد [1] من رسالة له فى الاعتذار :

أنا — أعزك الله — من لا يُحاجُك عن نفسه ، ولا يغالطك عن جُرمه ، ولا يلتمس رضاك الا من جهته ، ولا يستعطفك إلا بالاقرار بالذنب ، ولا يستميلك الا بالاعتراف بالجرم ، نَبَتْ بى عنك غِرة الحداثة ، وردتنى اليك الحنكة ، وباعدتنى منك الثقة بالايام ؛ وقادتنى اليك الضرورة ، فان رأيتَ أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر ، وتجدد النعمة باطّراح الحقد — فان قديم الحرمة ، وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الاساءة — فعلت إن شاء الله .

وبعد فان : أشد مايعاب به الأسلوب أن يكون نافرا مستكرَها ، أو غامضا مستغلقاً ، أو رِخوا مهلهلا ، أو سوقيا مبتذلا ، أو مموها متكلفا .

فمن النافر المستكره ، والغامض المستغلق قول أبى تمام :

جعل القنا الدّرجات للكذجات ذا
ت الغيل والحَرجات والادحال [2]

قد كان حَزن الخطب فى احزانه فدعاه داعى الحَين لِلإِشهال [3]

[1] كاتب من أبدع كتاب الدولة العباسيه وشاعر من أرق شعرائها [2] الكذجات : جمع كذج وهو المأوى أو الحصن ، والغيل : الشجر الكثير الملتف ، والحرجة : مجتمع شجر لا يقدر أحد أن ينفذ فيه ، والأدحال : جمع دحل وهو ثقب ضيق فمه ، ثم يتسع اسفل حتى يمكن المشى فيه [3] الحزن : ضدّ السهل ، والحين ، الهلاك والاشهال : المشاقة والمعاندة ، وهو فى هذين البيتين يذكر قتل بابك الذى خرج على

ومثال الرخو المهلهل . قول أبى العتاهية :

مات والله سعيدُ بن وهب رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان ابكيت عينى يا أبا عثمان أوجعت قلبى

وقوله :

ألا ياعتبة الساعة أموت الساعةَ الساعة

وقول بعض المتأخرين :

ألا ياصحة القلب العليلِ ومن تُطفا به نار الغليل
إلىَ كم ذا الجفا رفقا فانى قصير الصبر بالهجر الطويل
تملك القلوب وأنت فينا فريد الحسن مالك من مثيل
وجفنك ثم خصرك ثم جسمى نحيل فى نحيل فى نحيل

ومن السوقىّ المبتذل : قول أبى نواس :

فعسى نداه براحتى أعلو بها الافلاس قرعا
وعلىّ سور مانع من جوده ان خفت لسعا
فلو ان دهرا رابنى لصفعته بالكف صفعا

وقول أبى تمام :

بنفسى من هواه أخى وتربى وحُبَّه رضيع بنات قلبى
ومن قد شفنى وصبرت حتى ظننت بأن نفسى نفس كلب

ومن المموّه المتكلف قول صفىّ الدين الحلىّ :

المعتصم ، ثم تمكن المعتصم منه وقتله ، ومعنى البيتين أنه جعل القنا درجات ترتقى الى مواطنه المخيفة : أى انه أحاطها جميعا بالقنا ، وكان إذا أحزن : أى نزل الحزن ، شديد المحنة على أعدائه ، حتى دفعته نفسه إلى العناد واللجاج .

سلسل سلسل الريق لم يرو حر ظما بل بلبل القلب لما زاده ألما
قد قد قد حبيبى حبل مصطبرى إن آن أن أجتنى جرما فلا جرما

وقوله :

لسيرى فى العلا والليل داج وكرى فى الوغى والنقع داجن [1]
وركضى أدهم الجلباب صاف خفيف الجرى يوم السلم صافن [2]
وخطوى تحت راية ليث غاب بسطوته لصرف الدهر غابن
شديد البأس ذى أمر مطاع مضارب كل قرم أو مطاعن

نقد المعنى

للمعانى درجات متفاوتة بعضها فوق بعض :

١ — فأولها ما تم له حسن الاختراع ، وكان مع اختراعه نادرا طريفاً حسن الوضع بارع الاسلوب .

ومن المعانى المخترعة النادرة . قول البحترى :

لأنت مهزته فعز وإنما يشتد طعن الرمح حين يلين

والبيت الأخير من قول خالد الكاتب :

عش فحبيك سريعا قاتلى والضنى ان لم تصلنى واصلى
ظفر الحب بقلب مدنف فيك والسقم بجسم ناحل
فهما بين اكتئاب وضنى تركانى كالقضيب الذابل
فبكى العاذل لى من رحمة فبكائى لبكاء العاذل

[١] النقع : الغبار الساطع ، وداجن : منتشر الغيم ممطر وهو هنا على التشبيه .
[٢] الأدهم من الخيل : الأسود ، أو الابيض ، والجواد الصافن : الذى يقف على طرف الرابعة من قوائمه .

وقول أبي الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى
متأخَّرٌ عنه ولا متقدَّمُ
أجد الملامة فى هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمنى اللوَّم
أشبهتِ أعدائى فصرت أحبهم اذ كان حظى منك حظى منهم
وأهنتنى فأهنت نفسى صاغرا ما مَن يهون عليك ممن أكرم

وقول المتنبى :

يهُز الجيش حولك جانبيه كما نفَضت جناحيها العُقاب
طلبتهم على الامواهِ حتى تخوف أن تفتشه السحاب
اذا ما سرت فى آثار قوم تخاذلت الجماجم والرقاب
رميتهم ببحر من حديد له فى البر خلفهم عُباب (١)
فمساهم وبُسْطهم حرير وصبحهم و بسطهم تراب
ومن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خِضاب

وقول مهيار

أيا صاحبى أين وجه الصباح ! وأين غد ! صف لعينى غدا
أسدوا مسارح ليل العراق أم صبغوا فجره أسودا
وبين الضلوع غليل أبى ـ وقد برد الليل ـ أن يبردا (٢)

وقول المنازى من أبيات يصف فيها واديا :

يصد الشمس أنّى واجهتنا فيحجبها و يأذَنُ للنسيم

[١] الباب : الموج [٢] برد الليل : كناية عن اقتراب الفجر

تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

٢ — فان لم يتم الاختراع للمعنى فهنالك التوليد فيه : وذلك أن ينظر القائل الى معنى سُبق اليه فيولد منه معنى جديدا ، كما نظر ابن الرومى الى قول القائل

لعل استباق الدمع يُعقِب راحة

من الوجد أو يشفى نجىّ البلابل [١]

وقول كثير :

وقالوا نأت فاختر من الدمع والبكا فقلت البكا أشفى إذا لغليلى

فقال :

ابك فمِن أحْسَن ما فى البكا ان البكا للوجد تحليل

وهو اذا أنت تبيَنته حزن على الخدين محمول

فكلا الشاعرين الأولين قد أفصح عمّا يشعر به المحزون اذا غلبه الدمع من راحة النفس ، وشفاء الغليل ، أما ابن الرومى : فقد حلل المعنى وعلله ، ومثله أحسن تمثيل .

ونظر ابن المعتز الى قول النابغة فى وصف الحية :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرُقش فى أنيابها السم ناقع

فقال :

كأنى ساورتنى يوم بينهم رقشاء مجدولة فى لونها بُرق [٢]

كأنها حين تبدو من مكامنها غصن تفتح فيه النَّوْرُ والورق

---

[١] البلابل جمع بلبله — بفتح الباء — وهى شدّة الهم والوسواس فى الصدر .

[٢] الرقشاء من الأفاعى : ما ختلطت فيها الكدرة بالسواد

فجاوز الوصف الى التشبيه .

ونظر المتنبى إلى قول أبى تمام :

قد قلِّصت شفتاه من حفيظته فَخِيل من شدة التعبيس مبتسما

فقال :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنَّنَّ أن الليث يَبْتَسِم

فجعل الحقيقة مثلا سائرا .

ونظر ابن رشيق الى قول القائل فى تفضيل السواد على البياض .

وان سواد العين فى العين نورها وما لبياض العين نور فيعلم

فقال :

دعا بك الحسن فاستجيبى يامسك فى صِبْغة وطيب

تيهى على البيض واستطيلى تيه شباب على مشيب

ولا يرعكِ اسوداد لون كمقلة الشادن الربيب

فانما النور من سواد فى أعين الناس والقلوب

فجمل المعنى بالخيال البارع ، والتشبيه الرائع ، وزاد على نور العيون نور القلوب .

وممن أخذ هذا المعنى فجمله وأبدع صوغه ابن قَلاقس الاسكندرى :

رب سوداء وهى بيضاء معنى يحسد المسكَ عندها الكافور

مثل حَبِّ العيون يحسبه النا س سوادا وإنما هو نور

فقد زاد هذا على ابن رشيق أن ادعى أن مايحسبه الناس سوادا إنما هو البياض .

ونظر أبو تمام الى قول الفرزدق :

وما أمرتنى النفس فى رحلة لها   إلى أحد إلا اليك ضميرها

فقال :

وما طوفت فى الآفاق إلا   ومن جدواك راحلتى وزادى
مقيم الظنِّ عندك والامانى   وان قلقت ركابى فى البلاد

فهذا أتم معنى وأسمح لفظا وأحسن تقسيما من سابقه .

ونظر البحترى الى قول الفرزدق :

تفاريق شيب فى الشباب لوامعٌ   وما حسنُ ليل ليس فيه نجوم

فقال وأبدع ماشاء :

عذلتنا فى عشقها أم عمرو   هل سمعتم بالعاذل المعشوق
ورأت لمةً ألمَّ بها الشيـ   ـب فرِيعت من ظلمة فى شروق
ولعمرى لولا الاقاحى لأبصر   ت أنيق الرياض غير أنيق
ومزاج الصهباء بالماء أولى   بصَبوح مستحسن وغُبوقِ
وسواد العيون لو لم يكمَّل   ببياض ما كان بالمرموق
أى ليل يَبهى بغير نجوم   وسماء تَندى بغير بروق

فانظر إلى فنون التشبيه التى استحدثها البحترى فى مدح الشيب وانظر الى البيت الأخير كيف ألم فيه بمعنى الفرزدق ثم أضاف اليه تشبيها أبدع منه

ونظر شوقى الى قول أبى تمام :

بَصُرت بالراحة الكبرى فلم ترَها   تنال الا على جسر من التعب

فقال :

أعدَّت الراحة الكبرى لمن تعبا وفاز بالحق من لم يأْلُ طلبا

فأجمل البيت فى نصف بيت وزاد عليه معنى جديدا ، وان كان مما عسى أن يؤاخذ عليه استعانته بالكثير من لفظ أبى تمام :

ونظر كذلك الى قول الشاب الظريف :

رأى ، فحَبَّ ، فرام الوصل ؛ فامتنعوا فَسِيمَ صبرا ، فأعيا نيله ، فقضى

فقال :

نظرة ، فابتسامة ، فسلام فكلام ، فوعد ، فلقاء

فكلا الشاعرين ابتدأ بالنظرة الأولى وابتنى عليها مآل المحب وغاية الحب ، ثم سار الشاب الظريف حتى انتهى الى الموت ، وسار شوقى حتى انتهى الى اللقاء ، فأما مراحل الطريقين فقد أجاد ارتسامها كلا الرجلين .

٣ — فان لم يوفق القائل الى التوليد ، فهنالك حسن الاتباع :

وذلك أن يعمد القائل الى معنى سُبق به ، فيصوغه فى لفظ أحسن صقلا ، وآنق شكلا ، وأبلغ ايجازا مما كان فيه ، فهو بذلك أولى به من قائله ، وقد يتناول الشاعر المبين معنى تجاذبته العامة ، حتى ابتذلته ؛ فيفرغ عليه لبوسا من اللفظ ، بديع النسج ، صفِّى النهج ، مَوَشَّى الديباجة ؛ ينبئُ عن جميل فضله ، وعظم اقتداره .

وممن أخذ فأحسن الأخذ أبو العلاء المعرى فى قوله :

تكاد سيوفه من غير سلٍّ تَجِدُّ الى رقابهم انسلالا

فقد اتبع فيه قول المتنبى :

وتكاد الظُّبا لِما عوَّدوها تنتضى نفسها الى الأعناق

فبيت أبى العلاء أيسر لفظا ، وأكثر انسياغا من بيت صاحبه .

وقال مجير الدين بن تميم فى وردة باكرة سبقت أخواتها :

سبقت اليك من الحدائق وردة وأتتك قبل أوانها تطفيلا
حيتك حين رأت سناك فجمَّعت فمها اليك كطالب تقبيلا

وقد أخذه من قول ابن المعتز :

كم وردة تحكى بسبق الورد طليعة تسرعت عن جند
قد ضمها فى الغصن قرصُ البَرد ضم فم لقبلة من بعد

وقال أبو تمام :

عَلمنى جودك السماح فما أبقيت شيئا لدىَّ من صلتك

وهو من قول ابن الخياط :

لمست بكفى كفه ابتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فاتلفت ماعندى

فأنت ترى كيف أجمل أبو تمام بيتى صاحبه فى بيت واحد حسن اللفظ مهذب الأسلوب

وقال البحترى :

ولوَ ان مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسعى اليك المنبر

أخذه من قول العرْجى :

لو كان حيًّا قبلهن ظعائنا حيا الحطيمُ وجوهَهن وزمزمُ

وسار شوقى فى مساق البحترى فقال :

يكاد يسير البيت شكرا لربه اليك ويسعى هاتفا عرفات

وبيت البحترى أسمح لفظا من قول صاحبيه ، وهو كذلك أدل على المدح ، لأن سعى منبر رسول الله الى صاحبه أدل على قوة الصلة ، وحسن البيان :

وقال أبو نواس :

ملك تصور فى القلوب مثاله فكأنه لم يخلُ منه مكان

وهو مأخوذ من قول كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تَمَثَّلُ لى ليلى بكل سبيل

وأبو نواس أدق فى تصوير حب صاحبه من كثير :

وقال المتنبى :

وهكذا كنتُ فى أهلى وفى وطنى ان النفيس غريب حيثما كانا

وهو مأخوذ من قول أبى تمام :

غربته العلا عن كثرة الأهـ ـل فأضحى فى الأقربين جنيبا

وبيت المتنبى أكثر انسجاما ، وأوضح معنى ،

واتبع المتنبى قول العباس بن الأحنف .

بكت غير آنسة بالبكا ترى الدمع فى مقلتيها غريبا

فقال :

أتتهن المصائب غافلات فدمع الحزن فى دمع الدلال

فوضع المعنى فى أحسن وضع وصوره أبدع تصوير .

واتبع البحترى قول أبى تمام :

وحن للموت حتى ظن جاهله بأنه حنّ مشتاقا إلى وطن

فقال :

تسرع حتى قال من شهد الوغى لقاء عدو أم لقاء حبائب

وتبعهما المتنبى فأحسن ماشاء فى قوله :

بكل أشعثَ يلقى الموت مبتسما حتى كأن له فى قتله أربا

قُحّ يكاد صهيل الخيل يقذفه عن سرجه مرحا بالعز أوطربا

ومن المعانى المتداولة التى تناولها البحترى فأحسن صياغتها ، وأحكم تأليفها ، فجاءت صورة مشرقة أنيقة قوله :

أياقمر التمام أعنت ظلما علىّ تطاول الليل التمام

أعيذكِ أن يراقَ دم حرام بهذا الدّل فى شهر حرام

فانظر كيف قرب بين الألفاظ المتآلفة وألف منها عقدا بديعا لم يدر من يتناوله على أى معنى صيغ ، لأن حلاوة اللفظ وحسن التأليف تمنحان المعنى المبتذل صورة الجديد المبتكر :

٤ — فان لم يكن واحد مما سلف من توارد المعانى فهناك المعارضة والمناقضة ، وذلك أن يُسبَق القائل بمعنى ، فيناقضه مدحا وذما ، وفى هذا النوع من المغايرة رجِلاء للفكر ، وصقال للطبع ، وتنويع لمناهج القول :

وقد عارض المتنبى قول أبى الشيص :

أجد الملامة فى هَواكِ لذيذة حبا لذكرك فليلمنى اللوّم

وقول عبد المحسن الصورى :

أحب العذول لتكراره حديث الأحبة فى مسمعى

وأهوى الرقيب لأن الرقيـ ب يكون اذا كان خلٍّ معى

فقال :

أأحبه وأحب فيه ملامة ان الملامة فيـه من أعدائه

وعارض ديك الجن أبا تمام فى قوله :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب الا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

فقال :

اشرب على وجه الحبيب المقبلِ وعلى الفم المتبسم المتقبَّل
شربا يذكر كل حب آخر غض ويُنسى كل حب أول
نقل فؤادك حيث شئت فلن ترى كهوى جديد أو كوصل مقبل
ما إن أحن إلى خراب مقفر دَرَست معالمه كأن لم يُؤْهَل
مِقَتِى لمنزلىَ الذى استحدثته أما الذى ولى فليس بمنزلى

وأخذ غيرهما بطرفى الرأيين ، فقال :

قلبى رهين بالهوى المتقبل فالويل لى فى الحب إن لم أعدل
أنا مبتلى ببليتين من الهوى شوق إلى الثانى وذكر الأول
فهما حياتى كالطعام المشتهى لابد منه وكالشراب السلسل
قُسِم الفؤاد لحرمة وللذة فى الحب من ماض ومن مستقبل
إنى لأحفظ عهد أول منزل أبدا وآلف طيب آخر منزل

وعورض كل هؤلاء بقول القائل :

الحب للمحبوب ساعة حبه ما الحب فيه لآخر ولأول

وعارض البحترى قول أبى تمام :

يوم الفراق لقد خلقت طويلا لم تبق لى جلداً ولا معقولا

فقال :

ولقد تأملت الفراق فلم أجد يوم الفراق على امرئ بطويل

قصرت مسافته على متزود منه لدهر صبابة وعويل

وسمع بعضهم قول على بن سعيد فى تفضيل الورد على النرجس

من فضَّل النرجس وهو الذى يرضى بحكم الورد إذ يرأس

أما ترى الورد غدا قاعـــدا وقام فى خدمته النرجس

فقال :

ليس جلوس الورد فى مجلس قام به نرجسه يُركس

وإنما الورد غدا باسطا خدا ليمشى فوقه النرجس

وبعد : فكل ما أسلفنا من تداول المعانى وتواردها حسن جميل .

وهو دليل على ازدهار الأدب ، ونشاط التفكير . والمعنى المبتكر ككل شيء مبتكر يحتاج إلى من يتداوله بالعناية ، ويتعاهده بالإحسان ؛ حتى يبلغ غاية تمامه صقلا ووضوحا . فلا نقل إن فلانا سرق معنى فلان ، ولكن انظر إلى ماصنعه به واستجدَّه فيه ، فليس كل سَرَق مما يُذم صاحبه به ، وينفى من أجله قوله ، ولكن السرقة المذمومة هى التى يعجز صاحبها عن تهذيب ما أخذ ، أو تحسينه ، فان عجز ؛ فهو عالة على من أخذه منه .

كما فعل الصاحب بن عباد حين أغار على قول المتنبى :

لبسن الوشى لا متجملاتٍ ولـكن كي يصنَّ به الجمالا

فقال :

لبسنَ برود الوشى لا لتجمل ولـكن لصون الحسن بين برود

فمسخ اللفظ وكرر البرود :

وكما أغار أبو تمام على قول عبد الصمد بن المعذَّل :

ظبى كأنّ بخصره من رقة ظمأ وجوعا

ومن البليـة أننى علِّقْتُ ممنوعا منوعا

فقال :

مِن غادةٍ منُعت وتمنع نيلها فلو انها بُذِلت لنا لم تَبْذُلِ

فانظر إلى رقة الأول ، وحسن إيجازه ، وإلى اضطراب الثانى ، ونضوب مائه :

نقد الغرض

يتناول نقد الغرض ثلاث مسائل :

الأولى : سموه ومهانته

الثانية : صدقه وادعاؤه

الثالثة : وضعه فى الوضع المناسب له

فأما سمو الغرض ، أو مهانته ، فلهما الشأن الأول فى احلال القائل محله الذى هو أهل له .

فالشاعر الذى يُذهب ديباجة شعره فى الهجاء ، أو الاستجداء ، أو

العبث والمجون لا يكون بحالٍ فى سواء من ينهج لقومه خطيرات المجد، ويحفزهم إلى غايات الكمال، ويتحدَّث عن أيامهم الخالدة، وأحسابهم الكريمة، وينزع عن أمانيهم الخافقة، وآمالهم الوثيقة؛ فهذا شاعر القوم غيرَ مُمَارَى، وواحدُهم غيرَ مدفوع، وذلك هو المَهِين المجفو المدفوع عن غايته. وما أخر الحطيئة، ودِعْبِل بن على الخزاعى، وابن الرومى، وابن الجهم، وأشباههم عن أماكنهم التى تؤهلهم لها مقدرتهم النادرة فى صوغ الشعر، وابتكار معانيه إلا لجاجهم فى الهجاء، وغلوهم فى سفَال القول، وولوغهم فى مصون الأعراض؛ وقد عاب النقدة المُمَحصون على امرئ القيس قوله:

لنا غنم نسوِّقُها غِزارٌ كأن قُرون جِلَّتِها العِصِىُّ
فتملأُ بيتنا أَقِطاً[1] وسمنا وحسبك من غِنى شِبع وَرِىٌّ

وقالوا: إن هذا من أنذل القول، وأرذل الغرض. وكيف يقول ذلك من يقول:

فلو أنما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليلٌ من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثَّل وقد يدرك المجدَ المؤثل أمثالى

وعابوا عليه ضعة غايته فى قوله:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائمَ مُحْوِلِ

وقالوا: كيف ينحط ـ وهو سليل الملوك ـ إلى ابتغاء الحوامل والمرضعات، وما يكون ذلك إلا من نقص الهمة، ولؤم الغرض:

[١] الأقط: اللبن يمخض، ثم يطبخ، ثم يترك حتى يمصل.

وشددوا النكير على بشار فى قوله :

لا يؤيِسَنك من مخدَّرة قول تُغَلظه وان جرحا
عسر النساء إلى مياسرة والشىء يسهل بعد ماجمحا

وعلى أبى نواس فى قوله :

كان الشباب مطية الجهل ومُحَسّن الضحكات والهزل
والباعثى والناس قد رقدوا حتى أزور حليلة البعل

وقالوا كيف ساغ لهذين الشاعرين أن يهتكا على النساء حجاب الحياء وأن يذللا لهن عنان الشر ، ويمهدا أمامهن طريق الفجور ! وكيف يتهوران إلى هذه الهاوية وهما مسلمان ، بينما يسمو عنترة بنفسه ـ وهو جاهلى ـ إلى أن يقول :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

على أن الوصف لا يتضع بهوان موصوفه ، فالذى يجيد وصف النملة السارية : كالذى يجيد وصف الفرس الكريم ، وقد يكون الأول أخلق بالمدح ، وأحق بالايثار من صاحبه ؛ وقد جعلوا قول عنترة فى وصف الذباب .

وخلا الذباب بها فليس ببارح غَرِدًا كفعل الشارب المترنم
هزِجا يحك ذراعه بذراعه قدحَ المُكِب على الزناد الأجذم (١)

[١] هذان البيتان من معلقة عنترة ، وهما فى وصف روضة : يريد أن الذباب خلا بها وأقام فيها مغردا كما يتغنى المخمور اذا نشط للغناء ، ثم وصف الذباب بأنه يحك ذراعه بذراعه كما يكب الأجذم على حجر الزناد ليقدحه ، فهو يضرب الحجر بالحجر ، ثم يخطف يده ، ثم يعود الى ما كان فيه . وهو تشبيه مبتكر بديع

أدل على عبقريته وصفاء قريحته من كل ماقال فى معلقته .

٢ — وأما صدق الغرض وادعاؤه ، فلهما الأثر القوى فى وصول القول إلى أعماق النفس ، أو انصرافها عنه . وليس سواءً من يصف بقوله مشاعره ، وسرائره ، وخلَجات نفسه ، ونفثات صدره ، ومن يدَّعى ذلك كله ، غير نازع عن عقيدة ، ولا صادر عن وجدان .

هنالك تجد القول المنبعث عن القلب يمتزج بالقلب ، والمبهرَج باللسان يتبدد فى الأذان ، وليست النائحة الثكلى كالمستأ جَرة . وهل من يكافىء بين نسيب العشاق المدلهين الذين يبتعثون الشعر من قلوبهم المقروحة ، وأكبادهم المجروحة ، وبين نسيب الخلِيِّين الذين يجعلونه ضربا من الفن : لا ينزعون فيه عن حب كامن ، ولا شوق دخيل ؟ ومثل النسيب مثل كل شىء من فنون القول ، لايتم للقائل الإجادة فيه ، والتأثير به إلا إذا تأثر هو به ، وامتلأت نفسه منه .

وأين تجد قول الشريف الرضى فى الحنين إلى نجد :

ياصاحبىّ قفابى واقضيا وطرا وحدثانِىَ عن نجد بأخبار

هل رُوِضت قاعة الوعْساءِ أم مُطِرَتْ

خميلة الطَّلح ذاتُ البان والغارِ [1]

أم هل أبيت ودار دون كاظمة دارى وسُمَّارُ هذا الحى سُمّارى

---

[١] القاعة أرض سهله مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال ، والوعساء موطن من مواطن البادية ، والخميلة الشجر الكثير الملتف ، والطلح شجر عظام ، والغار شجر عظيم ذو دهن

تَضُوعُ أرواح نجد من ثيابِهم عند القدُوم لِقُربِ العهد بالدار

أين تجد هذه الأبيات التى قالها حضرى يتحَنَّن إلى البادية من قول الصِّمة بن عبد الله القشيرى [١] العامرى يحن إلى وطنه بنجد :

قفا ودِّعا نجدا ومن حلّ بالحِمَى وقلَّ لِنجد عندنا أن يُوَدَّعا

بنفسِيَ تلك الأرضُ ما أطيبَ الربا

وما أحسنَ المصطافَ والمتَربَّعا

ولما رأيتُ البِشْرَ أعرض دوننا

وجالت بنات الشوق يحنِنَّ نزَّعا [٢]

بكت عينيَ اليسرى فلما زجرتها

على الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى على كبدى من خشيةٍ أن تَصَدَّعا

وليست عشيات الحمى برواجع إليك ولكن خلِّ عينيك تدمعا

ألم تر إلى الشاعر الثانى كيف أودع شعره نار الشوق ، ولوعة الفراق ، فكان أملك للنفس ، وأندى على القلب ، وأفعل فى المشاعر من صاحبه . أما الأول : فقد حشد فى أبياته ألفاظ البادية ، وأعلام البادية ، ولكنه كان أبعد عن أن يؤثر بها تأثير أهل البادية ، ولا أن يفيض عليها روح البادية ، فجاءت كالتمثال المنحوت : يحمل روعة الفن ؛ ولا يحمل صفاء الروح .

---

[١] شاعر اسلامى بدوى من شعراء الدولة الأموية [٢] البشر جبل بالجزيرة ، وبنات الشوق آثاره فى القلب

٣ — وإذا كان خليقا بالقائل أن يسمو بغرضه ، فخليق به أن يضع لكل غرض كفاءه من الكلام ، فقد يكون اللفظ حسنا جميلا ، والمعنى سنيا نبيلا ، ولكنهما يعدُوان الغرض الذى سِيقا له ، فيفقدان ما فيهما من نبل وجمال . وأذكر أن عبد الملك بن مروان عَرَض شعر العرب ، فقال : ثلاثة أبيات ، لو قيلت فى غير ما قيلت فيه لكان أرفع لقدرها . منها قول كثير :

فقلت لها يا عزّ كلُّ مصيبة اذا وُطنت يوما لها النفس ذلت

لو قال هذا فى حرب ، أو فى تقوى وزهد ، لكان أشعر الناس ، ومنها قوله :

أسيئ بنا أو أحسنى لاملومةً لدينا ولا مقليَّةً إن تقلَّتِ

لو كان هذا فى وصف الدنيا لكان أجود

وقول القُطامى فى وصف مشية الابل :

يمشين رهواً فلا الأعجاز جافلة ولا الصدور على الاعجاز تتكل

لو قال هذا فى مشية النساء لكان أشعر الناس

وشبيه بذلك الانحراف عن الغرض قول أبى الطيب :

زودينا من حسن وجهك ما دا م فحسن الوجوه حال تحول

وصلينا نصلك فى هذه الدنـ يا ، فان المُقام فيها قليل

ألا تراه قد شرد عن الوجوه وحسنها ، والوصل وتنويله ، الى استحالة الحسن ، وفناء الدنيا ؟ وأين هذا من ذاك !

٤ — أدب النقد

النقد حُكم ، والناقد قاض ، ولا تستقيم سبيل القضاء حتى يبلغ القاضى غايته من العلم بالشرع والقانون ، وحتى يعرف لكل قضية ما يلابسها من دواع وحالات ، وحتى يكون وثيق المعرفة بالغرائز ، والطباع ، والعادات ، وحتى يكون أمين الرأى ، نزيه السريرة ، مأمون الهوى ، معتدل المِزاج . وعلى هذا السنن كان على الناقد أن يكون على علم نافذ ، وبصيرة نيرة فى اللغة وعلومها ، والأدب وفنونه ، والعرب ومناشئها ، وطبائعها ، وعاداتها ، والحضارة العربية ومدارجها ، وأن تتم له فوق ذلك سلامة الطبع ، وسماحة الذوق ، ونزاهة الرأى ، واعتدال المزاج . فان استكمل ذلك كله وجب أن يراعى فى نقده وتقديره تلك المسائل الآتية :

(١) لكل قوم سُنَنُهم فى القول ، ولكل عصر مذهبه فى الكلام ، ولكل بيئة عوامل خاصة تهىء لأصحابها ذوقاً خاصاً ، وأسلوبا خاصا ؛ فقد يسيغ أهل تِهامة ما لا يسيغه أهل نجد . وقد يخِفّ على أهل البادية ما يثقل على أهل المدائن ، وقد يجمل من الأعرابى الساذج ما لا يجمل من الحضرى المثقف ، فاذا عرَضْت لنقد قول سمعته أو قرأته ، فاعرض قبل حكمك ما أسلفناه مما يلابس القول ، حتى تتبين لك قدرة القائل على مراعاة الزمان والمكان ، وتلك هي البلاغة . ولقد عرض إسحاق بن ابراهيم الموصلى على الأصمعى هذين البيتين :

هل إلى نظرة إليك سبيلُ ... فيُبَلَّ الصدى ويُشفى الغليل

ان ما قل منك يكثر عندى ... وكثير ممن تحب القليل

وقال إنى سمعتهما من أعرابى ، فقال هـذا هو الديباج الخسروانى ، قال والله إنهما لليلتهما : أى من قوله ، فقال : لا جرم والله ، ان آثار الصنعة والتكلف بادية عليهما . وما ظَلم الأصمعى ، لأنه رأى قولا لا يشاكل العصر فى فنه وأسلوبه ومعناه ؛ فهو ساذج اللفظ والمعنى ، يحسن أن يكون من رجل يناسبه فى كل ذلك .

(٢) ليجتنب الناقد العصبية لشاعر خاص ، أو عصر خاص ، فان العصبية هوى مضل ، وداء عُقام ، وان من شأن العصبية للقائل أو عليه أن تطغى على السمع والذوق . حتى يجمل القبيح ، و يقبح الجميل ؛ وماظنك برجل يتعصب لأبى تمام ، حتى يسيغ ما يسبق اليه أحيانًا : من جفوة ، وتعقيد ، وينحرف عن المتنبى حتى يستقبح ما بذ فيه الأولين والآخرين من حكمة رائعة ، ومثل مبين .

(٣) إذا عرفت أن النقد نفى و إقرار ، و إهمال واختيار ، فوازن بين مساوىء القائل ومحاسنه ، فأيهما رجح كان حكمك وفقا له ، وان من العنت الشديد فى نقد الشاعر أن تجعله بحيث يأتي فى كل بيت بمعنى جديد وأن تغالى فى الزراية به والطعن عليه اذا خرج أحيانا عن الصفو إلى الكدر وجاوز الاحسان الى غير الاحسان ، فان الشاعر المطبوع كالبحر : فيه الدرر والجيف ، ومن طبعه الصفو والكدر .

(٤) لا يجمل بالناقد أن يضع فى ميزان التقدير الا ما قصد القائل إذاعته . فاما ما قاله فى عبثه وابتذاله ، وما أرسله على عواهنه فى بديهته وارتجاله ، فلا شأن للناقد به ، ولا مجال له فيه ؛ وان من الظلم للأدب أن

يعمد بعض الرواة الى شعر أبي نواس وأمثاله فيخلطوه بما قالوه فى مجانتهم وسكرهم وتبذلهم ، وفيه مايرتفع عن مثله الاحداث الناشئون . وانا لنذكر فى سبيل ذلك ما حدّث العباس بن الفضل ، قال : كان بشار يجلس فى مسجد الرُّصافة ، فيحضره ناس كثير ويحدثهم وينشدهم شعره ، فاندسست فى الناس ليلة ثم صحت به ؛ يا أبا معاذ ! من الذى يقول :

أحب الخاتم الأحمر من حب موالیه

فأعرض عنى وأخذ فى انشاد شعره ، فمكثت ساعة ، ثم صحت به ؛ يا أبا معاذ ! من ذا الذى يقول :

واذا أدنيتِ منى بصلا غلب المسك على ريح البصل

إن سلمى خلقت من قصب قصب السكر لاعظم الجمل

فغضب وصاح ! من هذا الذى يقرّعنا بأشياء كنا نعبث بها ، ويأتى برذال شعرنا ، وما لم نرد به الجد .

(٥) لا تتم الموازنة بين الشاعرين ، حتى تتم بينهما وحدة الزمان والمكان ، والمنشأ ، والنشأة ، والغرض ، والدواعى ؛ فلا تصح الموازنة بين النابغة وبين المتنبى ، لأنهما لم ينشئا فى عصر واحد ، ولا فى بلد واحد ، ولا بين من يرثى ولده ، ومن يرثى صديقه ، لاختلاف الداعيين . وقد ذكر لابن الرومى قول ابن المعتز :

وبدا الهلال كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وقيل له أتحسن أن تقول مثل هذا ؟ قال : أواه ! ذاك رجل نشأ فى دار الخلافة ، ونعم برفاهة الملك ، ورأى من ضروب النعمة ما لم يره غيره

أفتستكثرون أن يقول مثل هذا وأحسن منه ! ولكن انظروا هل يحسن هو مثل قولى :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به
يدحو الرقاقة وَشْكَ اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة فى صفحة الماء يُرمى فيه بالحجر

***

وبعد ، فليعلم الناقد أن النقد قطعة من علمه ، وعقله . وخلقه ، فلينظر أين يضع ذلك كله ، وفى أى مظهر يظهره ، والقائل والناقد متعاونان على إبلاغ الأدب غايته من القوة ، والنضرة ، والنماء ، فاذا توثقت العروة وتمت المعاونة ، فقد سار الأدب فى الجَدَد الواضح والمحجة البينة ؛ وكان ذلك أبلغ الوسائل لما يراد به من إحسان وتهذيب .

ملاحظات وموازنات

أمثلة عامة من مآخذ الشعراء ومحاسنهم

١ — قال امرؤ القيس :

أغركِ منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعلِ

ولعمرى اذا لم يغرها منه كل ذلك ، فأى شىء يغرها ! قال ابن المعتز : ومثل امرىء القيس فى ذلك كمثل الأسير يقول لمن أسره : أغركَ أنى أسير فى يديك ؟ وقد وقع فى مثل ذلك جرير ، فقال :

أغرك منى أننى قادنى الهوى إليك ، وما عهدٌ لـكن بدائم

٢ — وقال الأعشى :

وأنـكرتنى وما كان الذى نـكرت
من الحوادث الا الشيب والصلعا

فأى شيء تنـكره المرأة من الرجل أشد من ذلك ! ومثل ذلك قوله :

صدت هريرة عنـا ما تـكلمنا جهلا بأم خُليد حبلَ من تصل
أأن رأت رجلا أعشى أضر به ريب الزمان و دهر خائن ختِل !

فهو يعجب إذ صدت هريرة عنه ، لأنه أعشى أضر به الزمان ، وخانه الدهر ، والعجب منه هو فى ذلك [١]

٣ — وقال طرَفة :

أُسُدُ غِيل فاذا ما شربوا وهبوا كل أمون وطِمِرّ [٢]

فهم لا يسخون الا اذا ملـكت الخمر عقولهم . وأمثل ماقيل فى هذا قول عنترة :

فاذا شربت فاننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يُـكْلَمِ
واذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمتِ شمائلى وتـكرمى

٤ — وقال الشمَّاخ بن ضرار يخاطب ناقته :

إذا بلَّغتنى وحملت رحلى عَـرابةَ فاشرقى بدم الوتين

---

[١] ومثل ذلك ماحدثوا أن امرأة من قريش سمعت قول كثير
أأن زم اجمال وفارق جيرة وصاح غراب البين أنت حزين
فقالت اذا لم يكن الحزن عند فراق الجيرة وحنين الابل فأين يكون ؟

[٢] ناقة أمون : أى أمينة وثيقة الخلق ، والطمرّ الجواد الطويل القوائم الخفيف

وبئست المكافأة للناقة التى أبلغته غايته أن ينحرها . وقد أحسن عبد الله بن رَواحة رضى الله عنه فى قوله — وهو غاد فى جيش مُؤتة — يخاطب ناقته :

إذا بلغتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحِساء [1]
فشأنك فارتعى وخلاك ذم فلا أرجعْ الى أهلى ورأى

وأحسن الفرزدق فى قوله :

علام تلفتين وأنت تحتى وخير الناس كلهم أمامى
متى تردى الرُصافة تستريحى من الانساع والدبرَ الدوامى

وبلغ أبو نُوَاس غاية الاحسان فى قوله :

واذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطىء الحصى فلها علينا حرمة وذمام

٥ — وقال كُثَيِّر يمدح عبد الملك بن مروان :

وان أمير المؤمنين برفقه غزا كامنات الود منى فنالها

فجعل أمير المؤمنين هو الذى يتودّد اليه . ومثل ذلك قوله فى عبد العزيز بن مروان :

وما زالت رُقاك تسل ضغنى وتخرج من مكامنها ضبابى
ويرقينى لك الراقون حتى أجابت حية تحت التراب

فكل ما يشعر به كثير نحو ممدوحه الذى آثره بالكثير الموفور من

---

[١] الحساء جمع حسى — بكسر الحاء وسكون السين — الماء القليل ، وهو هنا موضع على مسافة أربع من مؤتة .

نعمته أنه لا يحقد عليه .

ومن تفاهة المدح قول الأخطل فى عبد الملك بن مروان .

وقد جعل الله الخلافة منهمُ   لابلجَ لاعارى الخوان ولا جَدْب

فهل مما يمدح به الملوك ، ألاّ يجوع قاصدهم ، ولا يعرى خوانهم ؟ أين هذا من قول أبي نُوَاس :

ياناقُ لا تسأمى أوتبلغى ملكا   تقبيل راحته والركن سيان

متى تحطى اليه الرحل سالمة   تستجمعى الخلق فى تمثال انسان

٦ — وقال عدى بن الرِّقاع العاملي :

وعلمت حتى ما أسائل واحدا   عن علم واحدة لكى أزدادها

وهذه الدعوى من الغلو الشديد ، بل من الاحالة الفاسدة . ألا وقف من علمه موقف زيادة بن زيد فى قوله :

اذا ما انتهى علمى تناهيت عنده   أطال فأعلى أم تناهى فأقصرا

٧ — وقال أبو تمام :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه   بكفيّك ما ماريت فى أنه بُرد

فوصف الحلم بالرقة ، وانما يوصف الحلم بالرزانة والرجحان ، كما قال الفرزدق :

إنا لَتوزن بالجبال حلومنا   ويزيد جاهلنا على الجهال

٨ — لما سمع عبد الملك بن مروان قول كثير فى مدحه :

على ابن أبي العاصى دلاص حصينة   أجاد المُسدّى سردها وأذالها

قال له وصفتنى بالجبن ، هلا قلت كما قال الأعشى !

واذا تكون كتيبة ململمة خرساء يخشى الدارعون نزالها
كنتَ المقدم غيرَ لابس جُنَّةٍ بالسيف تضرب مُعلِما أبطالها

فقال كثير وصفتك بالحزم ووصفه بالطيش . أقول والأمر كما قال عبد الملك ، لأن الذى ينازل الاعداء حاسرا أشجع ممن ينازلهم دارعا ، فأما الحزم والتوقى فلا معنى لهما هنا .

١٠ — وقال بشار .

لم يطل ليلى ولكن لم أنم وَنفى عنى الكرى طيف ألم

فأين طاف به الطيف اذا لم ينم ، وانظر قول القائل :

أَنْشُدُ الطيف فتأبى وصْلَهُ صلة السهد وتبريح الألم

١٠ — وقال المتنبى فى رثاء والدة سيف الدولة :

بعيشكِ هل سلوتِ فان قلبى وإن جانبتُ أرضك غيرُ سال

فقال فى أم الأمير مقاله فى أحبابه وذوات قرباه ، ومثل ذلك قوله فيها :

صلاة الله خالقنا حَنُوط على الوجه المكفن بالجمال

فهذا من ذلك . ولو قال المكفن بالجلال لكان أمثل ! وأين ذلك من قوله فى رثاء أخت سيف الدوله :

ياأخت خير أخ يابنت خير أب شهادة هى عندى أفضلُ النَّسَب
أجل قدرك أن تُسْمَى مُؤَبَّنَة ومن يصفك فقد سماك للعرب

١١ — قال أبو نواس من قصيدة يمدح بها الرشيد :

كيف لايدنيك مِن أمل مَنْ رسولُ الله مِن نَفَرِه

فأضاف الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم إلى ممدوحه ، وكان من أكبر الفخر له أن يضيفه إلى رسول الله .

وقد نظر ابن الرومى إلى هذا المعنى ، فأخذه على مافيه من عنت وانحراف فى قوله يمدح أبا الصقر :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن منه شيبان

ثم أصلح ما قال بهذا التشبيه البديع :

وكم أب قد علا بابن ذرا شرف كما علا برسول الله عدنان

ثم راجع معناه الأول فامتدح شيبان بقوله .

ولم أقصر بشيبان التى بلغت بها المبالغَ أعراق وأغصان

ولم يَرض الممدوح بكل ذلك الاصلاح ؛ فانصرف عن شاعره وحرمه جائزته . ذلك أن أعظم ما يزهِى العربىَّ أن تمجد آباءه ، ثم ترفعه برفعتهم ، وتجريه على سنتهم ، كما قال زهير :

وهل ينبت الخطىَّ الا وشيجُه وتنبت الا فى مغارسها النخل

وكما قال المتنبى :

فان يك سيار بن مكرم انقضى فانك ماء الورد ان فقد الورد



بين القرآن الكريم وكلام العرب

رأى فى اعجاز القرآن

تراجع العرب حين تحداهم الله بآياته البينات ، فلم يكن لهم طَوْقٌ بمعارضته ولا قدرة على تحديهِ : وهم أمة البيان : عليهم ورف ظله ، واليهم تناهت غايته . فهل كانت الصياغة الفنية فى الكتاب المبين هى التى عقلت ألسنتهم ، وأوهنت قوتهم ، ووقفتهم وقفة الأخيذ الحيران . لا يجيب داعيا ، ولا يحير جوابا ؟ ذلك مادرج على اعتقاده جمهور علماء البيان ، فأنشئوا الكتب الضافية فى اعجاز القرآن اعجازا فنياً . وراحوا يبتغون سمات البلاغة ، وينْشُدُون دقائق الفن : بين اللفظ واللفظ ، و بين الجملة والجملة ، وبين الأسلوب ومعناه ، وابتدروا يوازنون بين آياته المُحكمة وبين ما وقع على معناها من مأثور كلام العرب ، وكان مثار همهم ومدار جهدهم أن يستكثروا من نوادر الفصاحة فى الآية والآيتين والثلاث ، حتى لقد أتى بعضهم بأربعة عشر وجهاً من وجوه البلاغة فى سورة الكوثر ، وهى لم تَعْدُ عشرَ كلمات .

وهذا العنَت فى ابتغاء وجوه البلاغة قابله عنت مثله ممن لم يروا تلك الوجوه ماثلة بين أعينهم ، أو رأوها ولم يجدوها حَرِية بأن ترفع القول الى مراتب الاعجاز .

ونحن مع يقيننا يقينا لا مجال للشك فيه ، ان القرآن الكريم راضَ البلاغة من أسمح طرقها ، وأوضح مذاهبها ، وأنه شق للمتكلمين طريقاً

مُنهَجًا، لا ترى فيه عِوجاً ولا أمْتا . وأن فى تأليف كلماته ، وتفصيل فقراته وحلاوة ايقاعه ، وَسهولة مأتاه ، ومناسبة لفظه لمعناه ، مالا تجد مثله ، ولا قريبا منه فى كلام سواه — أقول مع يقيننا بذلك كله لا نقول ان العرب أُعجزُوا بهذه الصياغة الفنية : من ذكر وحذف ، وفصل ووصل ، وتقديم وتأخير ، وايجاز واطناب ، ومجاز واستعارة ، ومجانسة ومقابلة ، وما الى كل ذلك من أفانين اللفظ والأسلوب . لأن البلوغ بذلك كلِّه الى الغاية العليا لا يدع العرب فى أضيق مَن كِفةِ الحابل [1] لِما أصابهم من عجز وانقطاع لاسيما أن بلاغة القرآن من السهل الممتنع الذى يُطْمِع معارضه فى محاذاته وان أعجزه أخيرا عن الوفاء به . وما يمنع البليغَ المعاند من معارضة مَن هو أبلغ منه ؟ ومن هو الحكم المَرْضِىُّ الذى يقول له ان أسلوبك أقل روعة وصفاء من أسلوب مَن تعارضه ؟ وقد رأينا من متأخرى الشعراء من عارض السابقين الأولين فى أمهات قصائدهم ، وما ملكوا من المعارضة إلا وقوعهم على البحر والروى الذى قال فيه السابقون ، فأما ما عدا ذلك فليسوا منه فى قليل ولا كثير ، ومع ذلك يَحْسِبُون أنفسهم عارضوا وسبقوا ! ولهم فيما يحسبون شيعة وأنصار ! أفكان العرب يعجزون عن مثل ذلك ، وقد كانوا حين تحداهم الله بآياته ذوى القوة الصادعة ، والعدد العديد ؟ !

ليست الصياغة الفنية اذاً هى التى أعجزت العرب عن معارضة القرآن وان بلغ بها القرآن أسمى منازلها وأبعد مداها ، وانما أعجزتهم وجوه

[١] كفة الحابل : أى حبالة الصائد

أخرى غير تلك الصياغة ، وهى حرية ان تعجزهم ، لأنها فوق مناالهم ، وفوق آمالهم ، وفوق مداركهم : وتلك هى التى أُجملها اليك :

الوجه الأول : الأسلوب المنطقى والأسلوب العلمى . — .

لم يكن العرب يحسنون من فنون النثر الا الأسلوب الخطابى الذى يعتمد على التأثير فى النفس باللفظ الفخم الذى يملأ الآذان ، والأسماء المحبَّبَة التى تستثير المشاعر ، والفقرات المردّدة التى تستفز النفوس ، ولم يكونوا فى كثير من الأسلوب المنطقى الذى ينتقل من المقدمات الى النتائج . وينفذ من المعلوم الى المجهول . أما الأسلوب العلمى الذى تساق فيه الحقائق العلمية من أيسر السبل وأقرب الموارد فذلك لم يكونوا فى شىء منه ، لأن هذا الأسلوب وما سبقه لايحتاجان إلى قوة لَسَن ، ولا روعة فَن ، وانما يحتاجان الى نفاذ فى العلم ، ودقة فى الفهم ، وقوة فى التفكير ، وكل ذلك كان العرب فى جاهليتهم بمنجاة منه ؛ أو كأنهم كانوا بمنجاة منه

ذلك أمر العرب فيما أحسنوا ، وما لم يحسنوا من فنون القول .

أما القرآن فقد واجههم بحديث النفس ، والمنطق ، والعلم فى سياق واحد وَغرض واحد ومقالة واحدة ، وساق ذلك فى سلسلة مفرغة الصوغ مُحْكمة الحلقات ، لاوهى فيها ، ولا انقطاع لها ، فوقفهم بذلك بين شعاب ثلاثة ، إن سلكوا واحدا التوى عليهم اثنان ، ومايلتوى عليهم أجل وأعظم مما سلكوه .

ونحن نضرب من أمثال ذلك قول الله تباركت آيته فى أول سورة الحج :

بسم الله الرحمن الرحيم

يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝
يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ
كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى
وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ
تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ۝ يَاأَيُّهَا
النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ
ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ
مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ
مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ
مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا
يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا
أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ
زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ
يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝

وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ *

فانظر الى هذه الآيات كيف ابتدأت بالأسلوب الخطابى الذى استقام على الزجر والتنبيه ، والتفخيم والتهويل ، والتشبيه والتمثيل ، والاعتراض والاستطراد ، وكيف كانت كلمة زلزلة الساعة وتعقيبها بقوله « شىء عظيم » مما يسير بالفكر الى غير حد فى الترويع والتهويل .

ثم انظر الى قوة التمثيل فى قوله « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت » وقوله « وتضع كل ذات حمل حملها » وقوله « وترى الناس سكارى » ، ثم زاد التشبيه تشويقاً بقوله .. « وماهم بسكارى » ثم أبان عن الغاية بقوله . « ولكن عذاب الله شديد » ، وتأمل قوة التصوير فى هذا الذهول الذى يفرق بين الأم وولدها فى أحب حالاته إليها ، وأعطف حالاتها عليه ، وفى الفصل بين الحامل وحَمِلها ، وهما أوثق اللزيمين صلة وأشدهما التئاما ، وفى دعوى السكر ونفيها وبيانها . ثم انظر الى هذه النادرة الخطابية التى جمعت بين اللفظين المتقابلين فى قوله « يضله ويهديه الى عذاب السعير » .

فهذا هو الأسلوب الخطابى الذى بلغ الغاية العليا بكل ما فى الخطابة من قوة وتأثير ، فاذا ملأت منه يدك ، وروّيت نفسك ، فانتقل الى حديث المنطق والعلم فى قوله جلّ شأنه . . . « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم . . . » فقد ساق الله تبارك اسمه دليلين لا يقبلان الشك فى الوجود بعد الهمود ، والحياة بعد الممات ، وفى الحالتين استحال التراب بما فيه من قوة الحياة الكامنة الى خَلق حى يزداد على مدى الأيام نمواً وسمواً . وتأمل كيف كشف الله حجاب العلم فى قوله تعالى

« ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم » فهو تباركت قدرته يُسقط بعض هذه المُضغ من الأرحام ليشرح للانسان كيف كانت أوليته .

وفى هذه الآيات بسط أدوار التكوين الانسانى بما لا يمكن للعرب أن يأتوا بمثله ، لأنه أتى بعلم ما لم يكونوا يعلمون .

ومن الدِّقة البديعة فى الأسلوب العلمى الذى يخاطب الله به قوماً لا يعلمون ـ تعبيره عن تَضامِّ ذرات الأرض المتشابهة ، واختمارها بعد الحرث والبذر ، والريّ بقوله « فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » .

ثم انظر الى أسمى ما وصل اليه المنطق من جمع الأدلة وسياق المدلول أو تقديم الأمثلة ، وتأخير الدعوى فى قوله تعالى بعد أن ساق الدليلين المنطقيين . . .

« ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحي الموتى ، وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » .

أليس ذلك وأشباهه مما لا قِبَل للعرب به ، ولا طوق لهم بتحديه ! لأنه أبعد عن منال أفهامهم ، وغايات عقولهم . وجهد أسلوبهم ، فلا هو مما يتداولونه بالفكر ، ولا مما يتناولونه بالعيان .

لقد كان العرب فى مثل هذا الموقف يسترسلون فى الطريق الخطابى ، حتى ينتهوا منه ، ولا يكادون يلمون بشىء غيره . فان شئت الموازنة بين كلام الله وكلام العرب ، فوازن بين هذه الآيات الكريمة و بين كلام قس بن ساعدة وهو إمام خطباء العرب ، وكبير حكمائهم فى خطبته الآلهية التى قالها فى الموت والحياة . قال :

أيها الناس : اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات ، ليل داج ، وسماء ذات ابراج ، بحار تزخر ، ونجوم تزهر ، وضوء وظلام ، وبر وآثام ، ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب ، مالى أرى الناس يذهبون ثم لا يرجعون ؟ أرضوا بالمُقام فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟ وإلهِ قس ابن ساعدة ! ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه ، وأدرككم أوانه ، فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه .

ثم أنشأ يقول :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يمشى الاصاغر والأكابر
أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القوم صائر

***

فهذه الخطبة التى أجمع العرب على استحسانها ، لا تحوى إلا سرد بعض مظاهر الكون . صيغت فى فقرات متزنة ، وألفاظ متناسقة ، وأسجاع متلاحقة ، وكل ما استخلصه من هنالك قوله :

مالى أرى الناس يذهبون ثم لا يرجعون ! أرضوا بالمقام فأقاموا ! أم تركوا هناك فناموا ؟ ولم يصل من كل ذلك الى رأى حاسم ، أو فكرة قاطعة . حتى اذا أخبر بالدين الذى أظلهم زمانه — وهو الاسلام — لم يكن له من دليل إلا اليمين ! ثم مزج الشعر بالنثر لأنه أوثق صلة به ،

وأقرب شبهاً منه ، وهما جميعاً يُسقيان من مَعِين واحد ، ويذهبان إلى غاية واحدة .

وَمن الآيات التى تتصل بما نحن فيه من التدليل على الحياة بعد الموت ، والنشور بعد الدثور ، قول الله جل وعز :

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ

وفى هذه الآية من بُعد الغور ، ودقة الوضع ، ما يسمو عن افهام العرب . فكيف يتسنى لهم أن يحاكوه ، أو يعارضوه .

ولقد أراد الله تبارك وتعالى بقوله « يخرج الحىّ من الميت » أنه يصوغ الحيوان الحىّ من التراب الهامد . ففى الانسان ما فى الأرض من معادن وأملاح ، وكذلك كل جسم حىّ نامٍ انما نشأ وتكون واستقام من التراب ، واذا جف الجسم أو احترق فانما يعود قبضة من التراب : فيها كل ما فيه من مظاهر وسمات .

ومن هنا تعلم أن حنين الانسان الى وطنه انما هو حنين الجزء الى كله لانه قبضة من ترابه . وقوله « ويخرج الميت من الحىّ » اشارة الى ما ينفصل من الانسان ، وَما يَنْصُل من تجاليد جسمه على مر الزمان ، فان تجاليد الجسم تتغير كلها كل عشر سنوات ، وهذه تستحيل الى ما كانت عليه من مواد هامدة لا أثر فيها للحياة .

وأنى للعرب أن يصلوا إلى درك ما فى هذه الآية من عُظم الدلالة ، وبُعد الاشارة ، حتى يمكنهم أن يسيروا معها إلى غاية ، أو يقِفوا منها بسبيل ؟

٢ — القوة الروحية .

الوجه الثانى من وجوه الاعجاز : القوة الروحية فى القرآن الكريم ، وهى قوة قاهرة تثير المشاعر ، وتملك القلوب ، وأكثر ما تتمثل حين يتحدث الله ذو الجلال عن ذاته وصفاته ، وقدرته وقوته ، وجلاله وعزته ، ولطفه ورحمته ، وناره وجنته ، ووعده ووعيده ، وانذاره وإعذاره . وقد كان لهذه القوة الرائعة الأثر الأقوى فى رياضة العرب واجتذاب نفوسها الى الاسلام ، وهى التى كانوا يشعرون بوقعها من غير أن يعلموا كنهها . ولقد كانوا يفدون إلى النبى جبابرة معاندين ، أو ساخرين مستهزئين ، فما هو الا أن يسمعهم الرسول الأمين آيات من تلك التى يناجي بها الله عباده ، حتى تسكن النفوس الثائرة ، وتخشع القلوب النافرة ، وتستحيل القسوة العاتية الى عبرة جارية ، ورحمة دانية .

وهل لو وقف الأمر عند حد الصياغة الفنية ، وما فيها من دقة معنى ورقة أسلوب ! أكانت تراض تلك النفوس الجامحة بهذه السرعة اللامحة ؟ ولا يدفع هذا القولَ ما كان يجده الرسول من بغاة قريش حين يسمعهم آيات الكتاب ، فهؤلاء قد ضرب الحقد والعدوان على قلوبهم حجابا ثقيلا ، لا تنفذ منه الرحمة . ولا تضىء من خلاله الهداية ،

« وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ »

وكيف تقف النفوس جامدة حين تسمع قوله تبارك وتعالى .

وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

وقوله جل شأنه .

وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ *

٣ — الافاضة فيما يجهلون

الوجه الثالث : الافاضة فيما يجهلون من أحداث التاريخ وما قبل التاريخ وما بعد التاريخ من بدء العالم الى منتهاه ، ومن منتهاه الى معاده . وهذه الظاهرة القوية من ظواهر الاعجاز هى التى كانوا يحاولون دفعها بقولهم فيما حكاه الله عنهم .

وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

ورد عليهم سبحانه بقوله :

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا

ومما كان العرب يجهلونه واستفاض القرآن فيه أمور التشريع للدين والدنيا . فقد كانوا فى جاهليتهم لا ينزعون فى عقيدتهم ولا أعمالهم عن شريعة مفروضة ، فأتاهم الله بالعجب العجاب من دقائق التشريع للمعاش والمعاد مما لم تجيء بمثله الشرائع المسطورة ، ولا القوانين الموضوعة .

ومما استفاض القرآن فيه وهم يجهلونه وصف ماغاب عنهم وند عن علمهم كوصف البعث والحشر ، ووصف الجنة والنار ، ووصف العرش والكرسى ووصف الجن والملائكة ، وأعجب من ذلك وأدق وصف نور الله الذى لا يشبهه نورٌ سواه . وأنى لامرىء من الناس مهما سمت منزلته من قوة العلم وحسن البيان أن يصف نور الله كما وصف الله نوره بقوله !

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *

فهذا النور لا يشبهه عندهم وهج الشمس ، ولا وضح البدر ، ولا وميض السراج . فهم لا يلمحونه فى حس ولا يتخيلونه فى خيال ، فانظر كيف ضرب الله المثل لهذا النور الالهى بنور ينبثق من مصباح تحيط به زجاجة من البلور تزيد نوره قوة وصفاء . حتى لترى كالكوكب الدرى الذى يتألق فى السماء ،

وهـذا النور يخرج من كوَّة غير نافذة ليكون ذلك أشد لقوته ، وأعظم لسناه ؛ فانظر إلى هذا الكوكب الدرى الذى يتلألأ فى فضاء لا نهاية له كيف تكون قوة نوره وشدة روعته اذا خرج من كوة غير نافذة ، ولم ينته من وصف قوة النور حتى وصف مادته على أتم مايعلمون ، فجعله من زيتونة مباركة يتعاقب عليها الظل والشمس ، فلا هى منحرفة الى الشرق ولا الى الغرب ، وذلك أوفر لحملها وأصفى لدهنها ، وبلغ من جودة زيتها أنه يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار ، ومادة هذا النور كما وصفه الله جل شأنه أفضل وأقوى مادة للنور يعرفها العرب ،

وانا لآخذون بعون الله فى تفسير طائفتين من آيات الكتاب المبين وصفنا الكثير مما لا يعرفه العرب وصفاً بلغ منتهى السمو وأربى على غاية الاحسان .

١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ . قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (١)

(١) فى هذه الآية وما بعدها حكى الله حوار من غلبت عليهم الشقوة وحقت عليهم الندامة فباءوا بالعذاب الأليم يوم القيامة ، وفيها أظهر الله ما سيقع فى صورة ما قد وقع ، لأن ذلك أبلغ فى العبرة وأنفذ فى التأثير ، وقد

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ

ورد هذا النوع من المجاز فى مواطن كثيرة من القرآن الكريم ، فقال تباركت آياته « وعنت الوجوه للحى القيوم . وعرضوا على ربك صفا . ونادى أصحاب الجنة . أتى أمر الله : وأمثال ذلك كثير .

والبروز الانكشاف بعد الخباء ، وهو مأخوذ من السير فى الأرض البَرَاز — بفتح الباء — وهى الأرض الفضاء الواسعة المطمئنة التى لا يحجبها شيء . وانما قال برزوا لله ، والله لا تخفى عليه خافية لأنهم كانوا يخفون ماساء من أعمالهم ، وماخبث من سرائرهم ، فاليوم قد انكشفوا بين يدى الله عن كل ما أخفوه . وقوله تعالى «جميعاً» يشمل اجتماع الخلق على اختلاف أزمنتهم وطبقاتهم . وقد سمى الله الجماهير بالضعفاء وسمى القادة والزعماء بالذين استكبروا إظهارا للفريقين فى أقبح صفاتهما . وقوله تعالى حكاية عن الضعفاء « انا كنا لكم تبعاً » أى مسوقين وراءكم فيما تقولون وتعملون ؛ وكرر كلمة (من) تهوينا لأمر المستكبرين لاحتمال أن تكون فى الحالتين للتبعيض فهم لا يكفونهم اليسير من بعض عذاب الله ، وقولهم « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا » تذييل لما سبق من القول ، وقولهم مالنا من محيص بيان له ، والمحيص المهرب . وفى تعقيب الحوار بالتذييل ثم بالجملة البيانية من بعده زيادة فى التأييد والتأكيد ، واستخلاص للعبرة من الحديث . ومثال ذلك من القرآن الكريم « ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور » « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد . أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة

لِي . فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ . مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ . إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ . إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (٢)

الموت » وفيه تذييلان .

ومن التذييل فى الشعر قول الاعشى :

ودعوا نزال وكنت أول راكب وعلام أركبه إذا لم أنزل

وقول المتنبى :

تريدين ادراك المعالى رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل

وقول القائل :

ما مر بؤس ولا نعيم الاولى فيهما نصيب
نوائب الدهر أدبتنى وانما يوعظ الاديب

(٢) فى قوله جل شأنه قضى الامر نهاية الايجاز ، فانه يشمل انتهاء الحساب واستقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، ونفاذ القضاء فى غير رجعة فيه ولا مرد له . وفيما حكاه الله عن الشيطان « ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم » ايجاز بالحذف ، والكلام على تمامه « ان الله وعدكم وعد الحق فوفا كم ووعدتكم وعد الباطل فأخلفتكم » وفى هاتين الجملتين المتصلتين مقابلة . والمقابلة فن من البديع يجمل بترك الكلفة ومجاراة الطبع ، وكلما اشتدت حاجة الجملة الأولى الى الثانية كان ذلك أجرى فى السمع وأندى على النفس ، كما فى هذه الآية وأشباهها من مقابلات القرآن . ومثال المقابلة الحسنة فى الأدب العربى قول الجعدى :

فتى تم فيه ما يسر صديقه على أن فيه مايسوء الاعاديا

وقول الطرماح :

أسرناهم وأنعمنا عليهم وأسقينا دماءهم الترابا
فما صبروا لبأس عند حرب ولا ادّوا لحسن يد ثوابا

ومنه فى المنثور قول بعضهم : فان أهل الرأى والنصح ، لا يساويهم ذو الأفَن والغش ، وليس من جمع إلى الكفاية الأمانة ، كمن أضاف الى العجز الخيانة . وقيل للرشيد إن عبد الملك بن صالح يُعد كلامه ، فأنكر ذلك الرشيد ، وقال اذا دخل فقولوا له : ولد لأمير المؤمنين فى هذه الليلة ابن ومات له ابن ، ففعلوا . . فقال : سرك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك ، وجعلها واحدة بواحدة ، ثواب الشاكر ، وأجر الصابر .

قوله « وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى » فيه اعنات وتنصل من الشيطان لتابعيه ، وقد يكون ما بعد الاستثناء منقطعا كما تقول : لم ينلنى من معروفك إلا الاهمال . وقد يكون متصلا اذا ضمنت الدعوة معنى الخداع وتزيين الهوى ، والاول أوقع وأبلغ فى العذر ، وفيه تمهيد لقوله « فلا تلومونى ولوموا أنفسكم » وفى هذه الكلمة من فنون البديع السلب والايجاب ، وهو أن تبنى الكلام على نفى الشىء من جهة واثباته من جهة أخرى ، كقول الله تباركت آياته « فلا تخشوا الناس واخشونى » وقوله «ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما » ومثال ذلك من الأدب العربى قول السموءل :

وننكر ان شئنا على الناس قولهم
ولا ينكرون القول حين نقول

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ جَنَّتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ *

وقول القائل :

لاتسألى الناس ماما لى وكثرته وسائلي الناس ما دينى وما خاقى

وقول البحترى :

فابق عمر الزمان حتى نؤدى شكر إحسانك الذى لايؤدى

وقال رجل ليزيد بن المهلب « ولست تفعل شيئا من المعروف الا وأنت أكبر منه ، وهو أصغر منك ، وليس العجب من أن تفعل ، وانما العجب من أن لا تفعل » وقال الشعبى للحجاج « لا تعجب من المخطىء كيف أخطأ واعجب من المصيب كيف أصاب » .

وفى قوله « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى » حسن المقابلة . والاصراخ الاغاثة :

وقوله « انى كفرت بما أشركتمونى من قبل » أى أنكرت عليكم اتخاذكم إياى شريكا لله ، وانكاره فى الدنيا بالاستخفاف منهم ، وفى الآخرة بالبراءة من شركهم . وقد عقب الله سبحانه على هذه المحاورة بقوله تباركت آيته « إن الظالمين لهم عذاب أليم » وهذه هى الكلمة الجامعة التى استوعبت ما قبلها واستخلصت العبرة منه .

« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . » ذلك من تمام سياق الكلام ، فان من شأن القرآن أن يجمع بين الوعد والوعيد وبين الخوف

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ *

والرجاء فى مساق واحد، وفى قوله آمنوا وعملوا الصالحات جمع بين العقيدة والعمل وهما قوام السعادة. وقوله (وتجرى من تحتها الأنهار) : أى تحت مابها من البروج الممردة والقصور المشيدة، فيكون من ايجاز الكلام.

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة . . . » أى ضرب الله كلمة طيبة . . مثلا، فقدم مثلا للتشويق إلى مابعده، ولان فيما يليه تفصيلا مسهبا فلا يحسن تقديمه عليه. والكلمة الطيبة هى الخيِّرة التى لا مكروه فيها. والشجرة الطيبة : الزاكية الشهية الطعم، وقوله « أصلها ثابت » يدل على بقائها على الدهر، وثباتها على العاصفة، وامتداد ظلها، ووفرة ثمرها، وقوله « وفرعها فى السماء » أى مسترسلة فى السمو، فارعة فى الطول.

أقول : ولست تجد فى وصف الكلمة الطيبة كلاما أروع، ولا أوقع، ولا أجمع من هذا المثل البالغ منتهى القوة وغايات الجلال، فان هذه الكلمة الطيبة التى ترسلها على أرسالها، فلا تعلم أين ذهبت - جعلها الله كالشجرة الطيبة الضاربة فى أطباق الأرض، الذاهبة فى نواحى السماء، الموفية بالوعد، المواتية بالثمر، وذلك غاية الغايات فى قوة الأثر، وحسن المظهر والمخبر، وعظم العاقبة، وجلال المكافأة.

« ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » فى ذلك تذكير

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ *

وتفكير بما احتواه المثل من عبرة وعظة .

« ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » الشجرة الخبيثة هى الوبيئة ، والكلمة الخبيثة هى كلمة الباطل وقوله تعالى (اجتثت من فوق الأرض) أى استؤصلت . وفى اجتثاثها افساد لمظهرها مع بقاء وخامتها إلى حين ، وفى ذلك أصدق تمثيل لمقالة الباطل التى يسوء سمعها ويقبح وقعها ، ثم تذهب هباء فلا يبقى لها من قرار وفى هذين المثلين مقابلة تامة .

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء . . » لما ضرب الله المثل الجامع للكلمة الطيبة أعقبه بأثر من آثارها ، وصورة من صورها ، وهى كلمة التوحيد التى يثبت بها المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، فهم لا ينسونها وان أحيطوا بالفتنة ومحصوا بالبلاء ، وهم يذكرونها فى حساب القبر ، وفى يوم الحشر ، وبين يدى الله ، أما الظالمون فهم من أمرهم فى حيرة وضلال لكثرة ما ألفوا الباطل ، وجانبوا الحق . ويفعل الله مايشاء بعدله وحكمته

(ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) هذه صورة من صور الكلمة الخبيثة ، وهى الكفر فى موطن الشكر ، وهؤلاء الذين بدّلوا

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ * قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ *

شكر نعمة الله كفراهم كفار قريش الذين أطعمهم الله من جوع وآمنهم من خوف، ثم كفروا بأنعم الله «وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار» ودار البوار، هي دار الهلاك والخسران.

«وجعلوا لله أندادا . . .» الأنداد الاشباه والنظراء. وند الشيء مثله الذي يضاده في أموره. ويناده: أي يخالفه. وقد اتخذ العرب كثيرا من الأشياء جعلوها أندادا لله تعالى، ومنها الشمس والقمر والكواكب والشجر والنار والأصنام، وقوله تعالى «ليضلوا عن سبيله» قرىء بضم الياء وفتحها، وقد دخلت اللام على الفعل لبيان أن الضلال، أو الاضلال وان لم يكن غاية مقصودة قد كان نتيجة محتومة كما تقول خرج أهل مكة إلى بدر ليموتوا، وذلك على طريق المجاز، وقوله تعالى «تمتعوا» الأمر فيه للتهديد، وقد يقال إن اتخاذ الأنداد شركاء لله لا متعة فيه، فكيف يستقيم المعنى بقوله تمتعوا! قلت إن هذا الأسلوب من العبادة وان لم يكن متعة، فقد كان يتركهم وشأنهم في مُتَعهم التي كانوا يتمتعون بها: كالخمر والميسر والبغاء في كثير من وجوهه، واذاً يكون في قوله تعالى «تمتعوا» اعنات لهم، وتهوين لعبادتهم، كانهم لا ينحرفون عن عبادة الله إلا ليتمتعوا باقتراف المآثم. وقوله تعالى «فان مصيركم الى النار» فيه اتمام للوعيد وازراء بذلك المتاع الذي يؤول الى العذاب المهين.

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ *

« قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية . . » فى هذه الآية حذف مقول القول ، وتقديره قل لعبادى الذين آمنوا امتثلوا ، يقيموا الصلاة وينفقوا .. وفى الجمع بين الصلاة والانفاق جمع بين مايصل الانسان بربه وبين مايصله بأخيه ، ولا تتم أحدى الصلتين الا [illegible] الاخرى ؛ وقوله « سرا علانية » أى كل فى موضعه الذى يجمل [illegible] . وقوله تعالى « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » فيه وصف يوم القيامة بما يقطع رجاء الباذلين لغير الله ، فان المال يبذله أهل الدنيا فى صنوف المعاوضات أو فى ضروب الصداقات ، وكلاهما لا أثر له ولا سبيل اليه فى الآخرة . والخلال جمع خُلة ـ بالضم ـ وهى الصداقة وفى جمعها معان مختلفة : فهناك صداقة الحب ، وصداقة الهوى ، وصداقة الصحبة ، وصداقة المحالفة والمعاونة .

« الله الذى خلق السموات والارض . . » لما بسط الله القول فى اعدائه وأوليائه وما يجد كل منهم فى دار جزائه ، وصف نفسه وعرّف الناس ببعض آلائه ، لأن معرفة الله باب السعادة وسبيل الايمان . وأول

ما ذكر الله فى تعريف نفسه أنه خلق السموات والأرض وهما جماع كل شىء فى الوجود ، والثانية أنه أنزل من السماء ماء ، وسمى الله السحاب سماء اشتقاقا له من السمو ، وقد ثنى بهذه النعمة لقوة ارتباطها بالأولى ، لأن الماء يسقط من صوب السماء فيستقر فى الارض ، وقوله « فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » يريد بالثمرات ما نتجه الشجر وأخرجه النبات ، فالفاكهة والحَبّ من الثمرات ، كما دل على ذلك بقوله تباركت آيته (كلوا من ثمره اذا أثمروا آتوا حقه يوم حصاده) . والآية الثالثة « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره » وارتباط هذه الآية بما قبلها أن الشجر الذى تنبته الارض أقوى العوامل فى تركيب السفن والسفن أقوى العوامل فى توزيع الحبّ والثمر على البلاد والعباد . والآية الرابعة (وسخر لكم الأنهار) والأنهار أداة النقلة ، والاتصال بين البلاد والأقطار ، وفى الأنهار كما فى السحاب انتفاع بالماء فى رى الظمأ وسقى الارض ، والآية الخامسة (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) وللشمس الاثر الأعظم فى حياة الأرض وما عليها ، وفى انعاش النبات وادراكه ، وفى انارة الكون ليسعى كل امرىء الى عمله ، والقمر منار الليل وهادى السبيل ، وقوله دائبين من الدؤوب ، وهو فى اللغة مرور الشىء فى العمل على عادة مطردة ، ومثل ذلك دؤوب الشمس والقمر على الظهور ونشر النور ، ودؤوبهما على الحركة والسير . والسادسة (وسخر لكم الليل والنهار) وفى الليل والنهار ارتباط وثيق بالشمس والقمر ، والليل وقت سكون الأجسام وانتباه المشاعر والضمائر ، والنهار مجال الحركة والكد والعمل ، وقد عبر الله جلت آيته عن الشمس والقمر

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ

والليل والنهار فى سورة الفرقان تعبيرا رائعا ، فقال (تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وهو الذى جعل الليل والنهار خِلفة لمن أراد أن يَذَّكر أو أراد شكوراً) وأوجز ماقيل فى الليل والنهار والشمس والقمر ، وأبلغه قوله تعالى اسمه (فالِقُ الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً) ، وبعد : فتلك هى رؤوس النعم التى امتنّ الله بها على عباده ، ولم يكن ذلك كل ما أفاء الله على هذا الوجود ، بل انه زود كل واحد من الناس وكل قبيل منهم بما هو فى حاجة اليه من طيبات الرزق ، ونور العلم ، وهداية العقل والدين ، وذلك ما عناه جل شأنه بقوله (وآتاكم من كل ماسألتموه ،وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها) وكلما تدبرت وتفكرت فى نواحى نفسك ، وأرسلت طرفك فى كل ما يحيط بك لا تجد الا نعما لا يحيط بها العد ، ولا يبلغ كنهها البيان ، وقوله تبارك وتعالى (إن الانسان لظلوم كفار) وصف للانسان بأنه ظلوم للحقيقة والاقدار ، إذا مسه سوء شكا وجزع ، وإن ناله خير استأثر به ومنعه ذوى الحق فيه ، ونسى فضل الشكر عليه : وقد كرر الفعل بتكرار النعم توكيدا للقول وتنبيها للغافلين .

(وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام) جعل الله ابراهيم أبا الأنبياء المثل الأعلى لقوة الايمان ومهاجرة الأوثان ، وقد ضرب الله حديثه مثلا بالغا فى مواطن مختلفة من كتابه الكريم ، هداية للضالين ، وتثبيتا للمؤمنين . والظرف الأول متعلق بفعل

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ،

محذوف ، والتقدير : واذكر إذقال ابراهيم ، وقوله رب اجعل هذا البلد آمناً ، يريد بالبلد مكة المشرفة وتامين البلد منعه على من يغير عليه ويريد امتلاكه وانتهاك حرمته ، وقوله بنى : أى الأقربين الذين تتم منهم أسرته ، فلا يقال ان الله لم يستجب دعاءه لأن كثيراً من أبنائه عبدوا الأصنام ، ولو أراد سلالته جميعاً لقال وذريتى ، وقال ابراهيم واجنبنى وبنىّ ، فبدأ بنفسه وهو معصوم عن الشرك منزه عن الضلال ، تهويناً لنفسه بين يدى الله واظهاراً الى أنه محتاج فى ثباته على الحق الى قوة الله وعصمته .

(رب إنهن أضللن كثيرامن الناس) وفى اسنادا لاضلال إلى الأصنام مجاز بالسببية : أى أنهن كن سببا فى فتنة الناس وانحرافهم عن جانب الله. ثم قال (فمن تبعنى فانه منى) : أى بعض منى ، لأنه ورث عنى طاعة الله ، (ومن عصانى) — فيما دون الشرك — (فانك غفوررحيم) ومن رحمة الله أن يهدى العبد اذا ضل ، ويثبته اذا زاغ .

(ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غيرذى زرع عندبيتك المحرم) يريد ببعض ذريته اسماعيل ابنه ، ومهما تظاهر المفسرون على نسبة هذه الهجرة إلى غيرة زوجه سارة من زوجه هاجر ، فان ذلك لا يعدو ظاهر السبب والا لكفاه أن ينقلهما الى بلد قريب خصيب ، ولكن الحق كله أن ذلك وحى أوحى اليه لا يملك الاختيار فيه . أراد الله تباركت حكمته أن

رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

يرفع بيد نبيه بيته المحرم ، وأن يجعل ذلك البلد المقدس بفضل تلك الهجرة قبلة الأنام ومشرق الاسلام ، وقوله (عند بيتك المحرم) أى الذى يحرم التعرض له ، والتهاون به ، وقوله (ربنا ليقيموا الصلاة) أى لينشروا عبادتك ، فأطلق الصلاة على العبادة لأنها أفضل ضروبها ، وقوله (فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم) أى أفئدة من أفئدة الناس ، وقوله : تهوى اليهم : أى تنزع اليهم ، فى هذه الاستعارة قوة وجمال ، وقوله (وارزقهم من الثمرات) أى مما يجلب اليهم ، من الاقطار المختلفة ، وقد أجاب الله دعاء خليله ابراهيم ، فلم يترك له دعوة واحدة إلا حققها على مدى الزمان (ربنا إنك تعلم مانخفى وما نعلن) بعد أن استوفى إبراهيم عليه السلام دعاءه للبلد الأمين ومن أقام به من ذريته نازعه الوجد على فراق ولده وزوجه ومنعه اليقين من الافضاء به ، فقال : رب إنك تعلم مانخفى أى من الوجد ، وما نعلن من الدعاء ، وهو يريد بذلك أن يقوى الله قلبه على الفراق وأن يرعى له أحبّ الناس اليه ، وقد عقب الله تباركت حكمته على ذلك بقوله (وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء) وقد تكون تلك الكلمة من قول ابراهيم عليه السلام .

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ
رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ

(الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل واسحاق إن ربى لسميع الدعاء) فى ذلك القول دليل على أن هذه الدعوات كانت فى رحلة ابراهيم الثانية ، فان قوله فى أولها (رب انى أسكنت من ذريتى) أى بعض ذريتى ، وفى آخرها (وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق) يثبت أن ذلك لم يكن فى عهده الأول حين كان اسماعيل رضيعاً وحيداً لأبيه ، وقد حدد الله زمن الدعاء فى قوله جل شأنه (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك) الى آخر الآيات ، وهذا الدعاء فى غايته قريب من ذلك .

(رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء) دعا إبرهيم ربه أن يقويه وبعض ذريته على إقامة الصلاة ، ولم يقل وذريتى جميعاً لأنه سبق فى علم الله أن لا يقيم الصلاة جميع أبناء إبراهيم ، وقوله (وتقبل دعاء) أى عبادتى ، ومثله : وأعتزلكم وما تدعون من دون الله .

« ربنا اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب »

وفى دعائه لوالديه بعد أن تبرأ من أبيه حين أصر على الكفر كلام ، وقد يريد بوالديه آدم وحواء ، وقوله (يوم يقوم الحساب) أى يحين الحساب فعبر عن ذلك بالقيام على قدم وساق :

أما بعد ، فهذا حديث الله تباركت آيته ، وتعالت كلمته ، عن رحلة ابراهيم

وهجرة اسماعيل الى البلد الأمين . وكنا نريد أن نقف عند هذا الحد من تفسير تلك الآيات البينات لولا أن ما ألقاه بعض رجال الأدب فى عصرنا من شبهة وما أثاره من جدل فى سياق هذا الحديث يدعونا الى الالمام به حتى نعلم بأية قوة وعلى أى أساس يقوم نقض القديم واثبات الجديد.

ان هجرة اسماعيل قد ثبتت بما ورد منها فى القرآن والتوراة ، وبما تعارفه العرب تعارفا لم يساوره الشك من نسبة العدنانية الى اسماعيل بن ابراهيم ، وأن اسماعيل وابراهيم تعاونا على رفع القواعد من البيت الحرام

وكان على من يريد نقض ذلك أن يثبت أن ابراهيم لم يترك وطنه الى الحجاز ، أو أن ينقض ما تعارفه العرب عن نسبتهم و يلحقهم برجل غير اسماعيل بن ابراهيم ، ولكن كل ذلك لم يكن ، فكل ما أتى به أن لغة العدنانيين غير لغة القحطانيين ، فلا يمكن أن يكون اسماعيل تعلم لغتهم حين أصهر اليهم ، وان هذه النظرية - نظرية الهجرة - متكلفة مصطنعة فى عصور متأخرة ، دعت اليها حاجة دينية ، أو سياسية ، أو اقتصادية . وان فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، و بين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، وان هذا الحديث قد قبلته قريش ، واستغله الاسلام . وطريق هذا الأديب المجدد فى سوق هذه الأدلة قوله : فليس يبعد أن يكون اليهود قد وضعوا هذه القصة ! وليس ما يمنع أن تكون قريش قد قبلتها ! وما الذى يمنع أن يكون الاسلام قد استغلها ! ثم يبنى على هذه الأخيلة قوله : أمر هذه القصة اذا قد وضح ! أرأيته كيف ينقض حديث التوراة والقرآن ، وتواتر

العلم عن أبوة ابراهيم للعرب بقوله : فليس يبعد ! وليس مايمنع ! وما الذى يمنع ! ثم يبنى على هذا الهواء ذلك البناء . وهل ترى أن دعواه الأولى فى المغايرة بين لغتى القحطانية والعدنانية — ان صحت — وهي لم تصح — تنهض دليلا على فساد بنوة العرب لاسماعيل ؟ أو لا يكون من عوامل الخلاف بين اللغتين : ان لسان الأم مصرى ، ولسان الأب عبرانى ، وان هذا الدليل إن صح يكون دليلا عليه لا له .

أما ان اليهود قد وضعوا الحديث تحببا الى العرب ، فذلك مالا يسوغه شيء ؛ لأن اليهود أكثر ماجاوروا العرب القحطانية فى الشام وَيثرب واليمن ، وهؤلاء لم يلحقهم أحد بابراهيم .

وأما ان قريشاً قبلت هذه الدعوة رغبة فى الانتساب الى أب عظيم فلا يظن أحد أن مما يرفع بعض العرب على بعض انتسابهم الى أب أجنبى عنهم . لا سيما أنهم مشركون وابراهيم من دعاة التوحيد ، والاّ كانوا جميعا على ملة أبيهم ابراهيم .

وأما حجة استغلال الاسلام لها تحببا الى اليهود فيدفعها أن الاسلام هاجم اليهود فى غير رفق ، ونعتهم بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، وقاتلهم النبى فى غير هوادة ولا مهادنة .

والعجب من هؤلاء كيف يجعلون دعامتهم فى أشتات مباحثهم قولهم : اعتقد ! وازعم ! ولم لا يكون ! ولا بد أن يكون ؛ أوأن البحث قدأثبت كذا .. ! أما لماذا يزعمون ، وكيف يعتقدون ! وعلى أى قاعدة أثبت البحث الحديث ! فذلك ما لاشأن لأحد به ! كل مايهمه أنه نقض البناء القديم ! أما أن يقيم بعده

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ . إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
ٱلْأَبْصَارُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَاءٌ .

فى فضاء من الأرض لا يستره شىء . فحسبه أنه نقض القديم وكفى ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

ونعود الى ما كنا فيه . قال الله جل شأنه :

(ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) فى هـذه الآية وما بعدها معاودة للمعنى الأول وهو وصف يوم القيامة وصفاً يروع الظالمين ، وفى الانتقال من قول ابراهيم (ربنا اغفر لى ولوالدىّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) الى قوله تبارك وتعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) حسن تلطف فى الانصراف من موضوع الى موضوع ، حتى ليخيل لك أنك لم تنصرف عنه ، وقوله تعالى (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) أبلغ ما يوصف به الرعب والفزع ولوعة الحزن وروعة الخوف ، فان شخوص الأبصار انفتاحها حتى لا تطرف ، وذلك مظهر الروعة والذهول وخور القوى ، وفى الاهطاع معان : منها الاسراع ، ومنها النظر فى ذلة وخشوع ، ومنها الصمت ، ومنها الاقرار عن ذل ، واقناع الرأس رفع النظر فى مذلة وخشوع وقوله (يرتد اليهم طرفهم) إبلاغ فى الشخوص والذهول ، وقوله (وأفئدتهم هواء) أى خالية من الخواطر والأفكار ، لأن هـذا المنظر المروّع ملك عليهم مشاعرهم وخواطرهم ، فأصبحوا لا يفكرون فى شىء سواه .

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ . وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ

وقوله تعالى (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب) استخلاص للعبرة واستنقاذ من الغفلة .

(فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب) أى ردنا الى الحياة الدنيا وأمهلنا الى أجل قريب لنتوب اليك ونجيب دعوتك ونتبع رسلك (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) ذلك مما رد الله به عنهم ، وفيه إنكار وتأنيب وتذكير بدعواهم فى الدنيا من أنهم لا يزولون عنها إلى حياة أخرى ، ثم وصل ذلك الترويع والتقريع بضرب المثل لمشركي العرب إذ قال لهم (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) أى خلفتم قوما ظلموا أنفسهم بالمعصية كعاد وثمود والذين من بعدهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم من الخسف والتنكيل . وانظر كيف وصل الله حديث الآخرة بحديث الدنيا فى الآيتين السابقتين كأنهما فى مساق واحد ، وكأن هؤلاء المشركين فريق من أولئك المعذبين الذين يقولون - ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل .

(وقد مكروا مكرهم . . .) المكر الكيد والحيلة . وقد مكر الذين ظلموا أنفسهم بالأنبياء فكادوا لهم ولدينهم (وعند الله مكرهم)

وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ

أى مقابلة مكرهم بالاحاطة بهم وهم لا يشعرون ، وقد أبان الله ذلك بقوله جلت آياته (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا)

وإنما سمى الله إحاطته بمكرهم مكرا للمشاكلة والازدواج فى الكلام كما فى قوله تباركت آياته (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) فالأول ظلم وعدوان ، والثانى لا عدوان فيه ؛ وإنما سمى الجزاء باسم الذنب ليعلم أنه عقاب عليه ؛ ومن هذا السبيل قوله تعالى (يخادعون الله وهو خادعهم * وجزاء سيئة سيئة مثلها * نسوا الله فنسيهم * الله يستهزئ بهم)

وقوله جل شأنه (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) بلوغ بالمكر الى أبعد الغايات : أى إن الله محيط بمكرهم وان كان مكرهم معدا لتزول منه الجبال .

(فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله . . .) فى هذه الآية توكيد للوعيد وتقرير للحقيقة جاء به فى صورة النهى ليكون أوقع فى النفس ، وأبلغ فى التأثير ؛ وإنما قال مخلف وعده رسله ، ولم يقل مخلف رسله وعده دلالة منه على أن الأصل فى ذات الله ألا يخلف وعده أصلا ، أما ارتباط الوعد بالرسل أو غيرهم فذلك فى المنزلة الثانية ، وقوله (إن الله عزيز ذو انتقام)

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ . سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ

أى لايدع جبارا إلا أذله ولا باغيا إلا انتقم منه .

(يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) فى ذلك دليل على أن الأفلاك يضطرب بعضها فى بعض ، فتنسف الأرض والسموات نسفاً ، وتكون أرض المحشر حيث أعدها الله فى الدار الآخرة ، فلا هى فى الأرض ولا فى السماء ، وقوله (وبرزوا لله الواحد القهار) فيه بلوغ بوصف الله الى أبلغ ما يقتضيه المقام ، فهو المتفرد بالأمر ، وهو القهار لمن نازعه وناصبه العداء .

(وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) وفى هاتين الآيتين مقابلة بين عزة الله ، وذلة الكافرين ، وبين قوته وضعفهم ، وبين تفرده بالأمر وتقرينهم فى الأصفاد . والأصفاد السلاسل والأغلال ، والسرابيل جمع سربال وهو القميص ، ومعنى ذلك أن جلودهم تطلى بالقطران حتى يكون كالسرابيل وفيه تصوير لأشد ضروب العذاب ، ففى القطران قبح اللون ، وشدة اللذع ، ونتن الريح ، وسرعة الاشتعال ، وفى قوله (وتغشى وجوههم النار) دليل على أن النار تمشت فى أجسادهم حتى علت وجوههم : وذلك كله (ليجزى الله كل نفس ما كسبت) فهو يجزى على الكلمة الطيبة

هٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

والخبيثة ، وعلى العمل الصالح والقبيح (إن الله سريع الحساب) فهو يحاسب الخلق جميعا فلا يبطىء فى حسابهم ، وقد قيل لعلى عليه السلام : كيف يحاسب الله الخلق فى وقت واحد ؟ فقال : كما يرزقهم فى وقت واحد .

(هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب) أى فى هذا القدر من الكلام كفاية للناس ، وفيه نذير لهم بما حواه من عظة ووعيد ، وفيه سبيل إلى التوحيد بما ساقه من حديث ابراهيم ووصف المعاد . وفيه ذكرى لأولى الألباب بما أرسل فيه من عبر ، وما ضرب من أمثال .

أقول : وفى هذه الآيات من ضروب البلاغة ما يحصر دونه اللب ، وينقطع عنده البيان ، فقد رأيت كيف صور الله الدار الآخرة وما بها من سعادة خالدة ، وعذاب مقيم ، كأن كل ذلك قد وقع ، وكأن الجنة قد أزلفت ، وكأن الجحيم قد سُعِّرت ، وفى خلال ذلك مزج الله حاضر القوم بآتيهم ودنياهم بآخرتهم ، وأجرى الجميع فى مساق واحد ، وأفرغ عليهما صورة واحدة ، وفى ثنايا الكلام سيقت القصة الحكيمة ، وضربت الأمثال البالغة ، ونسقت التشبيهات الباهرة النادرة . وبلغت ديباجة القول آنق مظاهرها من تقسيم وتفصيل ، ومقابلة ومشاكلة ، ووقع كل لفظ على معناه الذى خلق له ، وانظر كيف بدأ الله الحديث بقوله (وبرزوا لله جميعا)

سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ

ثم انتهى بقوله (وبرزوا لله الواحد القهار) وذلك بعد أن مهد لهذين الوصفين بما يجعلهما لزاما لما قبلهما ، ثم انظر بعد ذلك إلى ماهو أسمي وأعظم من بلاغة اللفظ وما فيه من إيجاز واطناب ، وسلب وايجاب ، وذكر وحذف ، وفصل ووصل ، وتلك هي قوة الروح التى هى فوق جهد البيان ، وأبعد من منال كل خاطر ولسان ، تلك القوة التى تكسب الكلام على تكراره مدى الزمان روعة وجدة ،وجلالا وجمالا .

سورة الواقعة

(إذا وقعت الواقعة) الواقعة القيامة ، واشتق اسمها من الوقوع قطعا للشك فيها ، فهى واقعة لامحالة : وجرى القرآن على سنته فى حذف الجواب فى مواطن التهويل والترويع . والمعنى إذا وقعت الواقعة فسترون ما يجل عن الوصف (ليس لوقعتها كاذبة) أى لا تكون حين تقع الواقعة نفس كاذبة فيما تسأل عنه من خفايا الذنوب ، أو كاذبة فيما تدعيه من فناء الأجساد والأرواح فناء لارجعة له ، أو كاذبة فى تهوين المصاب العظيم ، فإن النفوس تكذب فى الخطوب فتحتال فى تيسيرها ، وتغالط فى حقائقها لتحلو مرارة العيش وتصفو أكدار الحياة كما يقول المتنبى

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع

خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ . إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا. وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً . فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْئَمَةِ .

ولمن يغالط فى الحقائق نفسه و يسومها طلب المحال فتقنع

أما عذاب الله فلا سبيل الى الكذب فى حقائقه لانه أليم من كل نواحيه (خافضة رافعة) أى تخفض قوما وترفع آخرين ، فكم من عزيز يَذِل ! وكم من ذليل يَعز ! أو تخفض الكون وترفعه . فتجعل أسفله أعلاه ، وأعلاه أسفله (إذا رجت الارض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا) رجت أى حركت بقوة ، وبست أى فتتت حتى تصير كالسويق ، والهباء أصغر الذر وأدق التراب ، والمنبث المتفرق . وذلك وصف رائع لما تستحيل اليه الارض حين يحل بها قضاء الله ، فانها تصاب بالصدمة الكبرى فتُرج فى الفضاء ويكون من أثر ذلك أن تنسف الجبال حتى تصير كالسويق المبسوس ، ثم تُنفَض الاجساد حتى تصير كالهباء المبثوث ، والظرف فى اذا رجت بدل من نظيره فى اذا وقعت ، فهذا مفصل لذلك ، وموضح له

وانظر الى هذه الآيات الثلاث كيف صورت فناء الارض أبلغ تصوير واحتفظت فوق ذلك بصفاء الديباجة ، وحلاوة الايقاع (وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة) الأزواج الأصناف يضم بعضها إلى بعض ، والميمنة من اليُمْن أو من اليمين ، والمشئمة من الشؤم ، أو من الشأمة : أى الشمال ، وإذا كانت الميمنة من اليمين كان أصحاب الميمنة أصحاب المنازل

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ .

الرفيعة ، وذلك من قولهم فلان منى باليمين : أى فى المقام الرفيع عندى ، أو أصحاب اليمن والسعادة فى الآخرة ، أو الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم وفيها الخير وحسن المآل ، ونقيض أولئك أصحاب المشئمة . وقوله تعالى «ما أصحاب الميمنة» أى أىّ قوم هم ؟ فما استفهامية للتعجب ، وتقول فلان هو ما هو ؟ أى أىُّ رجل هو ؟ ومعنى ذلك أن الكلام لا يحيط بوصفه ، وذلك ضرب من البلاغة قوى متين . (والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم) هذا هو الصنف الثالث من الخلق يوم الحشر ، وقد أخره الله فى الترتيب مع وضوح فضله ليوفيه حقه من الكلام وليقدمه على قسيميه فى التفضيل ، والسابقون هم الذين سبقوا إلى مرضاة الله واستعذبوا البلاء فى سبيل الله ، فكان من عاقبة أمرهم أن قربهم الله من عرشه الكريم فى جنات النعيم . وقوله تعالى «والسابقون السابقون» جملة تامة أخبر فيها عن الشيء بنفسه تعظيما له ، أى حسب السابقين فخرا أنهم السابقون : كقولك الملِك ملك ! وكقول القائل :

وإنى من القوم الذين همُ همُ ... إذا مات منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب ... بدا كوكب تأوى اليه كواكبه

وانظر إلى قوله أولئك وما تشير اليه من علو وتعظيم (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) الثلة الجماعة الكثيرة من الناس ، والأولون هم الأمم السالفة ، والآخرون هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والمقربون هم

عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ . مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ .

الذين قربهم الله منه فى أعلى عليين . لا ينكشف كل زمان الا عن آحاد منهم ، فاذا اجتمع هؤلاء على مدى الازمان السحيقة كانوا عددا كثيرا . وذلك لا ينفى أن يكون المقربون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أكثر منهم فى كل أمة سالفة (على سرر موضونة) الموضونة المغلفة بالذهب ، المشبكة بالدر والياقوت ، قد دوخل بعضها فى بعض كما توضن حلق الدرع (متكئين عليها متقابلين) أى أن هذه النفوس التى استخلصها الله لنفسه ، واصطفاها من عباده ، قد اجتمع بعضها قبالة بعض بمقربة من عرشه . وإن أسعد ما يكون المرء إذا اجتمع باخوان يشاكلونه فى طبعه ويسايرونه الى غايته ، فكيف بهذه النفوس التى هذبها الله ، وجملها بالصالحات ، وطهرها تطهيرا : (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون) الولدان المخلدون هم الذين يبقون أبدا ولدانا مخلدين ، فلا تتأثر نفوسهم ولا أجسادهم بمر الزمان ، والاكواب جمع كوب ، وهو الكوز المستدير الذى لا أذن له ولا خرطوم ، فاما ذو الخرطوم فهو الابريق ، ومن أجل ذلك يشبه العرب أباريق الخمر برقاب الطير وأجياد الظباء . قال عدى بن زيد :

كأن إبريقهم ظبى على شَرَفٍ مقدم بِسَبَا الكتان مَكعُومُ [1]

وقال آخر :

[1] الشرف : المكان العالى . سبا الكتان : خيوطه . ومكعوم : مشدود الفم

وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ .

كأن أباريق المدام لديهم ظباء بأعلى الرقمتين قيام

والكأس : الزجاجة ما دام فيها الشراب ، فان خلت منه فهى قدح وتطلق الكأس على الشراب وحده ، قال أمية بن الصلت :

مارغبة النفس فى الحياة وإن تحيا قليلا فالموت لاحقها
يوشك من فر من منيته فى بعض غِراته يوافقها
من لم يمت عَبطة يمت هرَما للموت كأس لابد ذائقها (١)

ورويت : الموت كأس لابد ذائقها ، على أنها الشراب بعينه : وقال الأعشى :

وكأس كعين الديك باكرت نحوها بفتيان صدق والنواقيس تُضْرَب

وقال علقمة :

كأس عزيز من الأعناب عتقها لبعض أربابها حانِيَّة حُوم (٢)

ووصف الشراب بأنه من معين لطهره وصفائه . وقوله لا يصدعون عنها ولا ينزفون أى لا يلحقهم ما يلحق المخمور من خُمار : وهو صداع الرأس ودواره ، ولا يدركهم مايدركه من نزف العقل ، وهو فقده واستتاره ، وبذلك بقيت للخمر نشوتها ولذتها وحسن السمر عليها ، وذهب عنها خَبَثُها وخمارها وشرود العقل منها (وفاكهة مما يتخيرون) أى يختارون لانفسهم (ولحم طير مما يشتهون) أى يتمنون ، وكل ذلك مما يطوف به الولدان (وحور عين كامثال اللؤلؤ المكنون) رفعت حور بالعطف على

[١] مات عبطة : أى مات شابا [٢] الحانية : أصحاب الحانات وحوم جمع حائم : أى طائفين بالشراب .

جَزاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا .

ولدان : أى يطوف عليهم ولدان وحور عين ، أو على الابتداء ، والتقدير : فيها حور عين . والحور جمع حوراء من الحَوَر : وهو سواد العين كلها ، وأقرب ما يكون ذلك فى بقر الوحش ، وبه شبه الانسان ، ولا تكون الحوراء الا بيضاء ، والأعراب تسمى نساء الامصار حواريات لبياضهن ، وبعدهن عن قشف أهل البادية ، والعِين جمع عيناء من العِين ، وهو اتساع العين مع عظم سوادها « واللؤلؤ المكنون » أى المستور فى محاره ، لم تبتذله عين ، ولم تمتهنه يد ، ولم تنل منه الشمس ، ولم يؤثر فيه الهواء . وقوله كأمثال اللؤلؤ أى كالاصناف المتماثلة من اللؤلؤ ، فهن أيضا أمثال أى أشباه فى الجمال .

(لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) اللغو مالا يعتد به من الكلام ، والتأثيم الهُجر والفحش « الا قيلا سلاما سلاما » أى الا أن يقال لهم سلاما بعد سلام ، وزاد هاتين الآيتين بعد أن استوفى النعم ووفى الجزاء ، لأن هذا من أعمال المقربين ، فهم الذين لا يلغون ولا يهجرون ، بل يذيعون السلام فيما بينهم ، ويكون قوله « لا يسمعون فيها » أى لا يسمع بعضهم من بعضهم . وانظر الى تلك الآيات وما حوته من عيون البلاغة وسمات البيان : فقد جمعت أحسن ما يتصوره الانسان من مناعم الحياة ، سواء فى ذلك مباهج الجسد ، وطيبات الروح ، ثم انظر كيف وصف كل نعمة بأجل وأمثل ما يناسبها من وصف ، مع الاحتفاظ ببهاء اللفظ وحسن نسقه ، وجمال ايقاعه ، وانظر الى قوله : والسابقون السابقون ، كيف جعل الاسم يخبر عن نفسه ، وكيف أشار اليه إشارة البعيد تعظيما له ،

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ، وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ .

وكيف وصف السرر بالكلمة التى تغنى عن جملة ، وكيف وصف المقربين بقوله : متكئين عليها متقابلين ، فوصفهم بالنعمة ، ورفع الكلفة ، وحسن الاجتماع ، وانظر إليه كيف أتى بأدوات الشراب مرتبة : فهنالك الاكواب وهى الاقداح الكبار ، والاباريق : وهى تملأ من الأكواب . والكاس وهى تملأ من الأباريق ، وأفرد الكاس وجمع الاكواب والاباريق لان الشارب يشرب بكاس واحدة من أكواب متعددة ، ثم كيف كنى عن الخمر بأنها كاس من معين ، فأبان عن صفائها وطهرها ، ونفى خبثها وأذاها ، ثم كيف قدم الفاكهة على اللحم ، لانها أفضل مايبدأ به من الزاد ، ثم كيف كنى عن النساء بأفضل صفات الجمال ، وشبههن بأدق مايشبه به جماعاتهن ، فهن كاللؤلؤ ، وهن أمثال متناسقة ، وهن مكنونات عن كل المؤثرات

(وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة وَلا ممنوعة)

السدر والطلح أروح أشجار البادية وأمدها ظلالا ، اليهما ينتهى السائر من لفح الهاجرة ، فيجد النسيم الندىّ ، والمقيل الطيب . لذلك جعل الله سدرة المنتهى رمزا للموضع الأقصى من الملأ الأعلى الذى تنتهى اليه الملائكة وأرواح الشهداء ، وهما هنا رمزان لما ينتهى اليه المؤمنون من النعيم بعد العناء ، والجزاء بعد البلاء ، ولكى يستوفى الكلام غايته جعل السدر مخضودا أى لاشوك فيه ، والطلح منضوداً : أى مصفوفاً بعضه الى بعض ، أو محملا

وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا . لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ . ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ .

بالثمر بعضه فوق بعض — وقيل فى الطلح انه شجر الموز — وظل ممدود : أى منبسط من الأشجار الباسقة المتناسقة التى انتظم بعضها الى بعض « وماء مسكوب » أى مترقرق يجرى على الأرض فلا ينقطع جريانه « وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة » أى دائمة قريبة المتناول .

(وفرش مرفوعة إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عرباً أترابا لأصحاب اليمين) الفرش جمع فراش ، وقد كنى الله بها عن النساء ، وقوله مرفوعة : أى على الأرائك أو الاسرة كما يقول سبحانه (هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) وقوله (إنا أنشأناهن إنشاء) أى ابتدأناهن خلقا جديدا ، وقوله (عرُبا أترابا) أى متحببات الى أزواجهن مستويات فى أسنانهن ، والعرُب جمع عروب ، والأتراب جمع تِرب ، وقوله (لأصحاب اليمين) أى أنشأناهن خاصة لأصحاب اليمين (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) أى هنالك جمع كبير من الأمم السالفة ، وجمع مثله من الأمة المحمدية .

وانظر كيف دلت هذه الآيات بضروب البلاغة النادرة ، من كناية واشارة ، وتشبيه واستعارة ، على مايلقاه أهل اليمين من نعمة ونعيم فى الحياة الآخرة ، كل ذلك فى أسلوب صفى رَيّق يناسب ذلك النعيم فى سهولته وسلاسته وصفاء ديباجته . وأى كلام تلقاه أندى للكبد ، وأروح للنفس وأجرى على الطبع ، من قوله : فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود

وَأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنْثِ ٱلْعَظِيمِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ . قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ . إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ . ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّالُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ .

وماء مسكوب على أنه قد روعى الفرق بين نعيم المقربين ونعيم أهل اليمين ، وهذا واضح لا خفاء فيه . (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم) ، السّموم حرّ النار يدخل فى المسام ، والحميم الماء الحار الذى بلغ أقصى غايات الحرارة ، واليحموم دخان أسود حالك السواد . وقوله (لا بارد ولا كريم) نفى لمحاسن الظل من استرواح به واستفادة من ثمره ، وفيه تهكم ساخر من أصحاب الشمال .

(انهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم) كانوا مترفين : أى كانوا يقترفون ما يوحى به الترف من غشيان اللذات وانتهاك الحرمات ، والحنث . الذنب والاثم : أى يقترفون الآثام ويصرون على اقترافها (وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون) كرر الاستفهام فى قولهم تأكيدا للاستنكار ، وقد تحداهم الله بأكثر مما استنكروه ، فقال (قل ان الأولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم) أى الى ميقات من يوم معلوم ، ثم زاد ذلك التحدى تحديا آخر ، فقال : (ثم انكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم) يخاطب أهل مكة ومن اليهم من المشركين .

فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ . هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ .

و (الزقوم كلمة لا يعرفها العرب ، وقد سألوا عن معناها بعض الوافدين عليهم من إفريقية ، فقالوا انه الزبد والتمر ، فقالت قريش : أبهذا يخوفنا محمد ! فوصفها الله فى آية أخرى بقوله (انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين) وقوله (ان شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلي الحميم) والمُهل دُردى الزيت : اذا فهو نبت بشع الصورة يستمد طعمه ومادته من أصل الجحيم ، فاذا اضطر أهل النار الى أكله اضطرارا غلى فى بطونهم كغلى الحميم ، فاذا اشتد بهم غليل الظمأ لا يجدون الا الماء البالغ أشد غايات الحرارة والهيم من الابل جمع أهيم وهيماء وهو ما اشتد به الظمأ أو اشتد به الداء ، فلا يرويه الماء على كثرة شربه منه ، وقد عطفت شاربون الثانيـة على الاولى ، وهما صفتان متفقتان لموصوفين متفقين ، والعطف يقتضى التغاير ليبين أن شرب الحميم وحده عـذاب شديد ، وشربه كما تشرب الهيم عذاب أشد . (هـذا نزلهم يوم الدين) أى هذا قِراهم الذى أعد لاكرامهم وفيه سخرية وتهكم .

والآن ينتقل القرآن الكريم من خطاب النفس بما يروعها و يفزعها الى خطاب العقل بما يُبَصِّره و يقنعه ، وانظر فى خطاب النفس كيف جعل الله الهواء والماء ، والظل والثمر ، وسائل نقمة وعـذاب للمشركين ، وهن وسائل الرحمة والنعمة للناس جميعاً ، وكيف سخر الله من انكارهم وتحداهم بما هو أعجب مما سألوا عنه ، وتوعدهم بما هو أشد وأهول مما توعد غيرهم به

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ . أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ. نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ . أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ .

حتى إذا ملأ نفوسهم رعباً ، وأفئدتهم روعة ، انتقل الى خطاب العقول فقال (نحن خلقناكم فلو لا تصدقون ، أفرأيتم ما تمنون ! أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) أي نحن ابتدأنا خلقكم ابتداء ، ومن أنشأ الشيء كان من اليسير أن يعيده اذا عطب . وقوله « فلو لا تصدقون » أى ان فى هذا لدليلا كافياً يدفعكم الى التصديق و يحضكم عليه . ثم فصل الدليل ، فقال «أفرأيتم ماتمنون» أى أفرأيتم النطف التى أنشئتم من جراثيمها ! أأنتم تخلقون ذلك أم نحن الخالقون (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون) أى نحن الذين خلقناكم ونحن الذين قدرنا بينكم الموت ، فما يمنعنا أن نعيدكم تارة أخرى . وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم . . . أى لسنا بمغلوبين ولا ممنوعين عن أن نبدل منكم أمثالكم . واذاً فالله المتفرد بالقدرة على إنشاء ما يشاء ، وافناء ما يشاء ، من شأنه أن يقدر على اعادة خلقه ، وذلك أهون عليه . ولقد ذكر الله منكرى البعث بقوله (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) أى لقد علمتم كيف نشأتم النشأة الأولى ، فكان عليكم أن تتذكروا ذلك وتستدلوا منه على قدرتنا على النشأة الأخرى . (أفرأيتم ما تحرثون) وهذه صورة ثانية من صور الانشاء والافناء

أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ . لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ .

وهى إنشاء النبات من الأرض بعد أن كانت هامدة ، وجَعْلُهُ حطاماً بعد أن كان ناضرا ، وقوله (لو نشاء لجعلناه حطاماً) أى أفسدنا إنباته فأذويناه فى حين نشأته ، وقوله (فظلتم تفكهون) أى تعجبون مما أصابه . وقوله (إنا لمغرمون بل نحن محرومون) حكاية لمحاورتهم فى تعجبهم : فمنهم من يقول إنا قد أصبنا بالغرامة فى المال ، وآخرون يتجاوزون ذلك و يقولون بل أصبنا بالحرمان من الرزق . « أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلو لا تشكرون) المزن جمع مزنة ، وهى السحابة البيضاء وماؤها أعذب المياه ، والأجاج . الملح الزعاق ، وقد ساق الله حديث الماء بعد أن استدل على البعث والنشور بحديث الحياة والموت ، وحديث النبات والحطام استطراداً بذكر النعم الشاملة ، وفيه أيضاً عند أهل العلم دليل على قدرة الله على الخلق والافناء ، والبعث والنشور ، كالدليلين السابقين فان هذا الماء المحيط بالأرض ، والسارى من فوقها ، والسارِبَ من تحتها ماتولد الا من بعض الغازات السارية فى الهواء ، وقد يتبخر الماء فيعود كما كان وقد تتحد أجزاؤه ثانية فيستحيل ماء ، فهو دليل على الوجود بعد العدم ، والبعث بعد الفناء . ورب سائل يقول : لم دخلت اللام فى قوله تعالى ــ لو نشاء لجعلناه حطاماً ــ ولم تدخل فى قوله ــ لو نشاء جعلناه أجاجاً ــ وقد

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

قيل فى ذلك ان اللام تدخل على الجواب لئلا يتبادر الى الذهن استقلاله عن جملة الشرط . فلكيلا تظن أن قوله (جعلناه حطاما) جملة مستقلة اقترنت باللام ، ولو استقلت لكان معناها جعلنا النبات حطاماً ببعض الآفات . فأما جملة جعلناه أجاجا : فلا يمكن استقلالها عن الشرط ، لأن الماء الذى ينزل من المزن ، لا يمكن أن يكون ملحا أجاجاً ، الا بمشيئة الله .

(أفرأيتم النار التى تورون) تورون من الورى ، وهو قدح الزناد واستخراج النار منه . (نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) والمقوى المسافر إذا نزل القَواء وهى الأرض القفرة ، والمقوى كذلك الذى لا زادمعه ، من أقوى اذا نفد زاده ، وفى النار متاع : أى منفعة لكليهما ، وفيها تذكرة : أى تذكر بنار الجحيم ، وفيها كذلك تذكرة بما كان لهذا الخشب اليابس من حياة ونضرة ، وبما استكن فى حطامه من قوة النار الكامنة ، فبعد أن يكون العود لدنا رطيباً ، تراه حطبا يابساً ، فاذا قدحته استعرت النار الكامنة فيه . وفى ذلك مثل واضح للحياة بعد الموت ، والبعث بعد الهمود .

وبعد : فهل رأيت كيف خاطب الله النفس ، فبسط القول ، وأطال الحديث ، ثم خاطب العقل ، فأجمل الدليل ، وأوجز المقال ، فبينا تراه يصف ما يلقاه السابقون ، بتفصيل مناعم النفس ، وتصوير مباهج الحياة ، إذا هو يقول فى حديث العقل « أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » وذلك من الكلم الجامعة ، التى ينطوى فيها البيان الجم ، والمعنى الواسع

المستفيض . ثم انظر إلى الانتقال من المحسوس فى قوله « أفرأيتم ما تمنون » إلى المعقول فى قوله « أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » ثم تبين ذلك الاستفهام وما فيه من اعنات وافحام

*
* *

أما بعد : فهذه وجوه من الاعجاز أجملها اليك . لتعلم أن القرآن الكريم لم يعجز العرب وحدهم ، وانما أعجز الناس جميعاً . ولو أن الله تحدى القوم بصياغته الفنية ، ما قالوا فى دفعه إنه سحر ، وانه شعر ، وانه إفك ، وانه كهانة ، وما قال الوليد بن المغيرة ، وهو قطب البلاغة فى قريش : لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ، ماهو من كلام الانس ، ولاهو من كلام الجن ! أفهذا اضطراب من أعيته استعارة ، أو أعجزته مقابلة ! كلا ! بل هو كلام من رأى مورداً لم يَرِدْهُ ، وغاية لم يَسِرِ اليها ، ومغاصاً لم يكن من شأنه ولا من جهده أن يغوص فيه . ولقد آن أن يعلم الناس أن القرآن آية الله الخالدة على الدهر ، ونوره المشرق على الخلق ، ولواؤه الخفاق على الأرض ! وان تقدم العلم والفكر لا يزيده الا تألقاً وانبلاجا ، وتقدما واطرادا . فالقرآن يسوق القول لمن يتفكرون ، ومن يتذكرون ، ومن يتدبرون ، ومن يعقلون ، ومن يعلمون . فالعلم والعقل وآثارهما من الفكر والذكر والنظر والبحث ، دعائم يعتمد عليها القرآن الحكيم . وليَنْهَضَنَّ القرآن بجناحين من الفكر والعلم حتى يضم أطراف الأرض ، ويجمع أشتات الخلق ، وينشر أعلام الهدى ، ويبدد أستار الظلمات

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ . صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيم

البلاغة النبويه

ولد الرسول الأمين محمد صلى الله عليه وسلم فى قريش ، واسترضع فى بنى سعد بن بكر ، والأولون أقوم الحضر لسانا ، والآخرون أحسن البدو بيانا ، وهو فوق ذلك قد رَوِىَ من حكمة الله ، وامتزج برحمته ، وتأدب بأدبه ، ونزع عن وحيه ، واستضاء بنوره ، فكان كلامه لذلك طبقة ممتازة من كلام العرب يكسوها قدس الحق روعة وجلالا ، ونفاذا واستمكانا من الأنفس والقلوب . وأنك لا تجد فى مختلِف أجيال التاريخ رجلا من الناس غَنِىَ آله وأصحابه بنقل كل جملة قالها فيما جل ودق من أمره هو ، أو أمور الناس ـ مثل ما نقل عن محمد صلى الله عليه وسلم .

فقد رُويت كل كلمة نطق بها ، فى كل فكرة طارئة ، أو لمحة خاطرة ، أو منادرة بالفكاهة ، أو مجاذبة للحديث ، وحَرَصوا على نقل ذلك حرصَهم على ما أسفر عنه صلى الله عليه وسلم . من حكمة بالغة ، وتشريع مبين ، وكان كل ماقاله خليقا أن يؤثر على الدهر ، وتعقد عليه الجوانح ، لأنه فى لفظه وأسلوبه ، وفى معناه وأغراضه ، يمثل لك رقة النفس التى صيغ النبى منها ، وسماحة الطبع التى فطر عليها .

وقد تناول صلى الله عليه وسلم الأسلوب الخطابى ، فبلغ به الذروة العليا ، بما أفاض عليه من قوة روحه ، ورقة نفسه ، وروعة منطقه ، وأصبح صلى الله عليه وسلم قطب الخطابة فى عصره النبوى ، فلم يعد يسمع خطيب سواه .

وإنك لتتبين قوة الروح الخطابى ، وبعد غَوره فى النفوس ، وعُظم سلطانه على القلوب بما أسوقه اليك من هذا الحديث عن أبى سعيد الخُدْرِى ، قال : لما أعطى رسول الله ما أعطى من مغانم حُنين فى قريش وقبائل العرب [١] ولم يكن فى الأنصار منها شىء ، وَجَد هذا الحىُّ من الأنصار فى أنفسهم ، حتى كثرت منهم القالة ، وحتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله قومه ! فدخل عليه سعد بن عُبادة . فقال : يارسول الله ، إن هذا الحىَّ من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفَىْء الذى أصبت : قسمت فى قومك ، وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شىء ، قال : فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ قال : يارسول الله ما أنا إلا من قومى ، قال : فاجمع لى قومك فى الحظيرة [٢] فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردَّهم ، فلما اجتمعوا اليه أتاه سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الانصار ، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

[١] فى هذه الموقعة أحاط المسلمون بجموع العرب وقضوا على جماعتهم ، وسيقت هوازن ومن اليها وما لها من مال وأنعام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد اختص الرسول أشراف قريش وسادات قبائل العرب بالكثير الموفور من المغانم والسبايا ليتألفهم : فأعطى أبا سفيان مائة بعير ، وأعطى ابنه معاوية مثله ، وأعطى كثيرا من سادات العرب مثلهما ، ولم يعط الأنصار شيئا ، فوجدوا فى أنفسهم ، لأنهم ظنوا أن بهم هوانا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانه تاركهم الى قومه

[٢] الحظيرة : أرض يضرب عليها سياج ، وكانت حظيرة الأنصار الى جانب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو له أهل ، ثم قال : يامعشر الانصار ما قالة (١) قد بلغتنى عنكم ، وموجدة وجدتموها فى أنفسكم ! ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله ؟ وعالة (٢) فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا بلى ، لله ولرسوله المنّ والفضل ، فقال ألا تجيبونى يامعشر الانصار ! قالوا وبماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل ، قال : أما والله لو شئتم لقلتم فصَدَقتم ولصُدِّقتم (٣) : أتيتنا مكذَّبا فصدَّقناك ، ومخذولا فنصرناك وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، وجدتم فى أنفسكم يامعشر الأنصار فى لُعاعة (٤) من الدنيا تألفت بها قوما ليُسلموا ، ووَكَلْتُكم إلى إسلامكم ! أفلا ترضَوْن يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشَّاةِ والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفسُ محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعْبا ، وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار (٥) اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار . قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم (٦) وقالوا : رضينا برسول الله قِسْما وحظا ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا .

* * *

فهل رأيت كيف راض الرسول بهذه الخطبة نفوس الأنصار فأحسن

---

[١] القالة : أحدوثة الشر ونقيضها القول [٢] عالة : جمع عائل الكثير العيال مع قلة المال [٣] أدخلت اللام على صدقتم الثانية دون الأولى ، لأن الصدق أيسر مئونة من التصديق [٤] اللعاعة : البقية اليسيرة ، يقال : لم يبق الا لعاعة : أى بقية يسيرة [٥] الشعب ـ بالكسر ـ ما انفرج بين جبلين ، أو الطريق فى الجبل ، وجمعه شعاب . ومفهوم هذه الجملة أن الأنصار أحبّ الى قلب الرسول من قريش وانه لا يفضلهم فى جماعتهم الا المهاجرون [٦] أخضل لحيته : بلها .

رياضتها ، وقادها فأحسن قيادتها ؟ فقد ابتدأها بالسؤال عما أذاعوا من قالة ، وما احتملوا من موجدة ، ثم واجههم بما تفضل الله ورسوله عليهم من الجمع بعد الفرقة . والألفة بعد النفرة ، والغنى بعد الحاجة . حتى إذا لانت ازِمَّتهُم ، وأسلست نفوسهم ، ذكر عظيم سابقتهم فى الفضل ، وجليل نصرتهم للنبى ، وعَلِىَّ مكانتهم عند الله ، وساق ذلك بأسلوب يسيل رقة ويشف صفاء . ثم وازن بين نصيب العرب ونصيبهم ، وكيف عاد أولئك بصُبابة يسيرة من عَرَض الدنيا ، ورجعوا هم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا استيقنوا عظيم حظهم ، واستبانوا وفور قسمهم ، أنبأهم بأنهم أحبُّ اليه وأعز عليه من قومه ، ثم اختتم القول بهذه الدعوات البارة المباركة التى هي أحب إلى نفوسهم مما حوت الدنيا .

الخطبة النبوية الأولى

لما أنزل الله على رسوله تبارك وتعالى « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ » جمع أهله وعشيرته وخطبهم بقوله :

انَّ الرائد لا يَكْذِبُ أهْلَه[1] والله لو كَذَبتُ الناسَ ما كَذَبتكم

[١] هذا مثل ابتكره الرسول وتمثل به ، وهو أفضل مايقدم به موضوعه ويمهد له به ، لأنه لا يمارى فيه عربى ، وما بعده من الجمل تأكيد له ، وترديد لمعناه ، وقد انتقل صلى الله عليه وسلم من هذه المقدمة الخطابية الرائعة إلى غايته التى يريدها بقوله : والله الذى لا إله إلا هو . . . . ، وقد سار الرسول فى خطبته جميعها على النسق الخطابى الذى أسلفنا الحديث عنه . وذلك فرق ما بين الحديث وبين القرآن الكريم . وإنك لتجد هذا الفرق واضحا حين تنظر تدليل القرآن على البعث فيما أتينا به من سورة الحج ، وفى تدليل الرسول عليه فى قوله « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون . . » فهذا أسلوب خطابى قوى ، وذلك أسلوب منطقى علمى .

ولو غررتُ الناسَ ما غررتكم ؛ والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله اليكم حقا ، والى الناس كافة ، والله لتموتُنَّ كما تنامون ، ولتُبعثُن كما تستيقظون ولَتُجْزَوُنَّ بالاحسان احسانا ، وبالشرِّ شرّا ، وإنها لَلجنة أبدا ، أو النار أبدا ، وانكم لأَوَّل مَنْ أُنذِرَ بين يَدَىْ عذابٍ شديد .

الخطبة المدنية الأولى

لما كانت أولُ جمعة للنبى الكريم بالمدينة خطب المسلمين ، فقال :

الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا أكْفُرُه ، وأعادى من يَكْفُرُه ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة : على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ؛ من يُطع اللهَ ورسوله فقد رَشَد ، ومن يَعْصِهِ فقد غوَى وفَرَط [1] وضل ضلالا بعيدا ، وأوصيكم بتقوى الله فانه خير ما أوصى به المُسْلمُ المسلمَ : أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذَّركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكرا ، وانَّ تقوى الله يُوَقِّى مقته ، ويوقِّى عقوبته وان تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرَّطوا فى جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله « لِيَعْلَمَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَيَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ » فأحسِنوا كما أحسن الله

[١] فرط : ظلم واعتدى

إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حىَّ عن بينة ، فأكثروا من ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم ، فانه من يُصْلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة الا بالله .

خطبة الوداع

وهى التى ألقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى حجة الوداع

إن الحمد لله ، نحمده ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يَهْدِ اللهُ فلا مُضِل له ، ومن يُضلل فلاهادىَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله : أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعة الله ، واستفتح بالذى هو خير .

أما بعد أيها الناس : اسمعوا منى أبينْ لكم ؛ فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، فى موقفى هذا . أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوْا ربكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألَا هلْ بلَّغت ! اللهم اشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى

الذى ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع [١] ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبدأ به دمُ عامر بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غيرَ السَّدانة والسقاية [٢] والعمْد قوَد [٣] وشبه العمد ما قُتل بالعصا والحجر ، ففيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يُعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تَحْقِرُون من أعمالكم ، أيها الناس : — إنما النسىء [٤] زيادة فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا [٥] عدة ما حرم الله — وإن الزمان قد استدار

---

[١] وضع الدين أسقطه . وقد أسقط الرسول ربا الجاهليه فلا يؤدى فضله .

[٢] يريد بمآثر الجاهلية ما كان يستأثر به بعضهم على بعض كالحقوق التى كان يتوارثها سادات العرب . ومن هذه الحقوق ما قال القائل :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

فالمرباع ما يأخذه الرئيس من الغنيمة وهو ربعها ، والصفايا ما يصطفيه الرئيس فوق ذلك من مختار الغنيمة ، والنشيطة ما أصاب من الغنيمة قبل أن يصير الى مجتمع الحىّ ، والفضول ما امتنع على القسمة لقلته وخص به .

وسدانة الكعبة خدمتها وتولى أمرها وفتح بابها واغلاقه ، وفعلها سدن يسدن ـ كنصر ـ وقد كانت السدانة لبنى عبد الدار ، فأقرهم الرسول صلى الله عليه وسلم عليها والسقاية ارواء الحاج ، وقد كانت فى آسر من قريش [٣] القود : قتل النفس بالنفس أو القصاص عامة [٤] النسىء : شهر كانت العرب تؤخره فى الجاهلية ، وذلك أنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها . فكانوا ينسئون المحرّم و يؤجلونه الى صفر [٥] ليواطئوا عدّة ما حرّم الله : أى ليوافقوا و يطابقوا عدة الشهور .

كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض — إن عدة الشهور عند الله اثناعشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات ، وواحد فرد : ذو القَعدة وذو الحِجة والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان [١] ألا هل بلغت ! اللهم ! اشهد . إن لنسائكم عليكم حقا ، وإن لكم عليهن حقا . لكم ألا يوطِئْنَ فرشكم غيرَكم . ولا يُدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة [٢] فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تَعْضُلوهن [٣] وتهجُروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرّح ، فان انتهين وأطعنكم ، فعليكم رزقهن وكسوتهُن بالمعروف ، وإنما النّساء عندكم عوانٍ [٤] لايملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا . أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه ، ألا هل بلغت ! اللهم اشهد فلا ترجعوا بعدى كفارا يضربُ بعضكم أعناق بعض ، فانى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وأهلَ بيتى ، ألا هل بلغت ! اللهم اشهد . أيها الناس : ان ربكم واحد ، وأن أباكم واحد ، كلكم

---

[١] انما حدد رجب ، لأن العرب كانت تؤخره من شهر الى شهر كما تشاء أهواؤهم إذا أرادوا الحرب أو السلام

[٢] كل قبيح من القول والفعل ، فهو فاحشة ، ومن الفاحشة خروج المرأة من دار زوجها بغير إذنه ، وتطاولها عليه بالهجر من القول .

[٣] عضل الزوج زوجته أساء عشرتها حتى تنزل له عن حقها عنده .

[٤] العوانى جمع عانية : أى أسيرة : أى ان النساء حبائس عليكم .

لآدمَ ، وآدمُ من تراب ، أكرمُكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ! قالوا نعم . قال فليبَلِّغ الشاهِدُ منكم الغائب . أيها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارثٍ وصيةٌ فى أكثر من الثلث ، والولد لِلفراش [١] وللعاهر الحَجَر ، من دُعِيَ إلى غير أبيه ، وتولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرْفا وعدلا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

جوامع الكلم

من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

١ — قال صلى الله عليه وسلم : إذا أعطاك الله خيرا فَلْيَبِنْ عليك [٢] وابدأ بمن تَعُول [٣] وارتَضِخْ من الفضل [٤] ولا تَدُم على الكفاف . ولا تعجِزْ عن نفسك [٥] .

---

[١] الفراش لفظ مستعار لكل واحد من الزوجين ، ومعناه هنا صاحب الفراش أى الزوج ، أو المولى للجارية ، والمراد بالحديث أن الولد للزوج أو المولى وللزانى الخيبة والحرمان

[٢] فليبن عليك : أى فليظهر عليك بالصدقة والمعروف وحسن الحال .

[٣] وأبدأ بمن تعول . هذا بيان للفقرة الأولى : أى إذا أبنت نعمة الله عليك فابدأ بمن يلزمك أمرهم ، ومفهوم قوله : فابدأ بمن تعول لا تجعلهم فى العطاء أولا وأخيرا

[٤] وارتضخ من الفضل : أى أعط مما فضل من مالك شيئا فشيئا كما تفعل مرضخة النوى حين ترضخه : أى تكسره شيئا فشيئا .

[٥] لا تعجز عن نفسك : أى لا تجمع لغيرك وتبخل عن نفسك . وهذه الكلمة من أجمع وأوجز ما عرف من الكلام ، وفيها فوق الايجاز حسن الاستعارة ودقة الاشارة

٢ — أُتى النبى صلى الله عليه وسلم برجل قدشَحَبَ وجهه ، وهُزل جسمه ، وغارت عيناه لفرط صيامه وقيامه ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن هذا الدين متين [١] فأوغِلْ فيه برفق فان المُنْبَتَّ [٢] لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى .

٣ — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياكم وخضراء الدمن [٣] قيل يارسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأةُ الحسناء فى منبت السوء .

٤ — قال صلى الله عليه وسلم : إن رُوح القدس نفث فى رُوعى [٤] أن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها ، ألا فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب .

٥ — قال صلى الله عليه وسلم : لا تزال أمتى بخير ما لم تر الامانة مغنما والزكاة مغرما .

٦ — كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة ، فبكى النساء ، فانتهرهن عمر ، فقال عليه الصلاة والسلام : دعهن ياعمر ، فان النفس مصابة ، والعين دامعة ، والعهد قريب .

٧ — دعا النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع ، وقلب لايخشع ، وعين لاتدمع ، ونفس لا تشبع .

---

[١] إن هـذا الدين متـين : أى قوى رصين ، ومن قوة الدين أن يروض النفس ولا يعنتها .

[٢] المنبت المنقطع فى طريقه ، سمى بذلك لانبتات ظهر مايحمله : أى انقطاعه

[٣] الدمن جمع دمنة ، وهى الفضلات المتلبدة ، وقد ينبت عليها النبات أخضر زاهيا ، وهو مرّ وخيم ، ولا تجد اتصالا بين طرفى التشبيه كما تجد فى هـذا التشبيه القوى البديع . [٤] الروع ـ بضم الراء ـ القلب .

٨ — ومن دعائه : اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها أمرى ، وتتم بها ثقتى ، وتصلح بها رغائبى ، وترفع بها شاهدى وتزكي بها عملى ، وتلهمنى بها رَشَدى ، وترد بها أُلْفتى ، وتعصمنى من كل سوء

نظائر وأشباه

فى الأدب العربى

أدب النساء وأدب الرجال

١

كيف وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

أم مَعْبَد وأنس بن مالك

١ — أم معبد :

لما فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، مهاجرا الى المدينة ، خرج ومعه صاحبه أبو بكر ، ورائده عبدالله بن أرَيْقِط ، فمروا بأم معبد — وكانت امرأة بَرْزَةَ جَلْدَة [1] تقيم فى خيمة لها — فسألوها لحما وتمرا ليشتروه منها ، فلم يصيبوا عندها شيئا ، فنظر رسول الله الى شاة فى كِسْر الخيمة فقال : ماهذا ياأم معبد ! قالت : شاة خَلَّفها الجَهْد عن الغنم ، قال : هل تأذَنين لى أن أحلُبها ! قالت : بأبى وأمى أنت ! نعم ! إن رأيت بها من حلَب فاحلُبْها ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة ، فمسح ضَرْعها ، وسمي الله

[١] البرزة من النساء التى لاتحجب وجهها عن أحد ، والجلدة التى تمتهن العمل

ودعالها فى شاتها ، فتناجّت [١] عليه ، وَدَرَّت واجْتَرَّت [٢] فسقى الرسولُ أم معبد حتى رَوِيَتْ ، وسقى أصحابه حتى رَوُوا . ثم شرب آخرَهم . وقال : ساقى القوم آخرُهم . فشربوا جميعا عَلَلاً بعد نَهَل [٣] ثم أراضوا [٤] ثم حلب ثانية عَودا على بدء حتى ملأ الاناء ، ثم غادره عندها ، وارتحلوا عنها ، فقَلَّ مالبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً حُيَّلا عِجافا [٥] هزَالا مُخهن قليل ، ولا نُقاَ [٦] بهن ، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب ، وقال : مِن أين هـذا ياأم معبد والشاة عازبة [٧] حِيال ، ولا حَلُوبَةَ فى البيت ! فقالت : لا والله ! مر بنا رجـل مبارك كان من حديثه كَيْتَ وكيت .

قال صفيه لى ياأم معبد . قالت :

رأيت رجلا ظاهِرَ الوَضاءة [٨] أبلجَ الوجه [٩] حَسَنَ الخلْق ، لم تَعبْه ثجلة [١٠] ولم تُزْرِ به صُقلة [١١] وسيما قسيما [١٢] فى عينيه دَعَج [١٣] وفى أشفارِه وَطَف [١٤] وفى صوته صَحَل [١٥] وفى عنقه سَطَع [١٦]

---

[١] تناجت : سالت . [٢] اجترت الناقة أو الشاة : أخرجت بعض مافى بطنها لتمضغه وتبلعه . [٣] إذا شرب الانسان ثم استراح ثم شرب ثانية فالشربة الأولى نهل والثانية علل . [٤] أراضوا : أى شربوا مرة أخرى

[٥] حيل جمع حائل : وهى التى انقطعت عن الحمل وعجاف جمع عجفاء : أى مهزولة

[٦] النقا جمع نقاوة ـ بضم النون ـ المختار من كل شىء .

[٧] عازبة : أى بعيدة عن المرعى . [٨] الوضاءة : الحسن والبهجة .

[٩] أبلج : طلق أغرّ . [١٠] الثجله : ضخامة البطن .

[١١] الصقلة : دقة الجسم وشدّة نحوله . [١٢] الوسامة : بهاء الطلعة ، والقسامة : حسن الوجه وحسن تقسيمه . [١٣] الدعج : شدّة سواد العين فى شدّة بياضها [١٤] الوطف : غزارة أشفار العين وطولهما [١٥] الصحل شبيه بالبحة فى الصوت ولا يكون حادا . [١٦] سطع العنق : طوله فى جمال .

وفى لحيته كثاثة ، أحورُ ، [١] أكحل ، أزجّ [٢] أقرن ، [٣] إن صمت فعليه الوقار ، وان تكلم سماه وعلاه البهاء ، فهو أجمل الناس ، وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأحلاه من قريب ، حُلو المنطق ، فصل : لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ [٤] كأن منطقه خرزات نُظمُ يتحدرن ، ربْعة [٥] لا تشنؤه من طول ، ولا تقتحمه العين من قِصر ، غصن بين غصنين ؛ فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدا ؛ له رفقاءُ يحفون به ، ان قال أنصتوا لقوله . وان أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود [٦] لا عابس ولا مُفَنَّد [٧]

قال أبو معبد : هو والله صاحب قريش الذى ذُكر لنا من أمره بمكة ما ذكر ، ولو كنت رافقته لالتمست صحبته ، ولأفعلن ان وجدت إلى ذلك سبيلا .

أنس بن مالك .

ووصف أنس بن مالك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيض مُشْرَبا بحمرة . ضخم الرأس أزجّ الحاجبين ، عظيم العينين ، أدعج ، أهدب ، شَثْن الكف والقدمين [٨]

---

[١] أصل الحور أن تسود العين كلها ، ولا يكون ذلك إلا فى البقر والظباء ، ثم استعير لعين الانسان إذا غلب سوادها على بياضها . [٢] الزجج : رقة محط الحاجبين ودقتهما وطولهما وتقوسهما [٣] القرن : اتصال الحاجبين .

[٤] النزر : القليل التافه ، والهذر : الكثير الردىء .

[٥] الربعة المتوسط بين الطول والقصر ، وقد فسرته بما أتى بعده .

[٦] المحفود : الذى يحترمه أصحابه و يعظمونه ، والمحشود الذى يحيط به من حوله

[٧] مفند : مكذب .

[٨] شثن الكفين والقدمين : أى يميلان الى الغلظ والقصر .

اذا مشى تكفأ ، كأنما ينحط من صبب (١) ويمشى فى صعد (٢) كأنما ينقلع من صخر ، اذا التفت التفت جميعا (٣) ليس بالجعد (٤) القطط (٥) ولا السبط (٦) ذا وفرة (٧) إلى شحمة أذنيه ، ليس بالطويل البائن (٨) ولا القصير المتطامن ، له عرف أطيب من المسك الأذفر (٩) لم تلد النساء قبله ولا بعده مثله ، بين كتفيه خاتم النبوة كبيض الحمامة ، لايضحك الا تبسما ، فى عنفقته شعرات بيض لاتكاد تبين .

موازنة بين الوصفين

بدأت أم معبد فوصفت الرسول صلى الله عليه جملة ، ثم وصفته تفصيلا : فاما الصورة الأولى فقد أجملتها فى قولها : رأيت رجلا أبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة . ولم تزر به صقلة . وسيما قسيما وأما الصورة الثانية : فقد فصلت فيها دقائق جسمه . ونظام منطقه . ومكانه من صاحبيه ، ولم تصف شعر رأسه لأنه كان إذذاك ملتفع الرأس .

ووصف مالك بن أنس من رسول الله لونه . وبعض وجهه . وامتلاء كفيه وقدميه . ومشيته . وشعر رأسه . وطول قامته . وريح جسمه ،

---

[١] كأنما ينحط من صبب : أى منحدر إلى الأرض .
[٢] الصعد المرتفع من الأرض . [٣] التفت جميعا : أى بوجهه وصدره .
[٤] يقال : جعد الشعر اذا كان يابسه قصيره [٥] القطط : الشديد جعوده
[٦] يقال : شعر سبط اذا كان منبسطا مسترسلا .
[٧] الوفرة شعر الرأس اذا بلغ شحمة الأذن
[٨] البائن أى المفرط طولا الذى بعد عن قد الرجال الطوال
[٩] العرف الرائحة والاذفر الشديد الرائحة

ولم يتخذ له نظاما خاصا . فهو يصف وجهه . ثم يعود فيصف شعر رأسه ثم ينثنى إلى طوله . فهى أعم منه وصفا وأحسن منه نظاما . ثم انظر إلى ما وصفت به قامة النبى صلى الله عليه وسلم ترها تقول : ربعة : لاتشنؤه من طول ، ولا تقتحمه العين من قصر — غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا وأحسنهم قدا . ويقول مالك : ليس بالطويل البائن ولا القصير المتطامن : فهى أبلغ منه وأوفى ، بما فصّلت من الوصف ، وما وصفت من عيوب الطول والقصر . وما مثلت به النبىَّ بين صاحبيه . وقد انفردت عن أنس بوصف منطق النبى وصفا ساحرا حين قالت : حلو المنطق . فصل . لا نزر ولا هذر . كأن منطقه خَرَزات نظم يتحدرن . على أن أسلوبها كله يكاد يكون قصيدة مختارة ، بما حوته من حسن نسق ، وصفاء ديباجة ، وحلاوة إيقاع .

واذا علمت أن أم معبد لم يُلمَّ بها النبى صلى الله عليه وسلم إلا ساعة من نهار . ثم مضى عنها فلم تعد تراه ، وأن أنس بن مالك أقام على خدمة الرسول عشر سنين . وهو يراه فى حالى رضاه وغضبه . ونومه ويقظته ونجواه وعلانيته . أقول : إذا علمت هذا أدركت فرق ما بين الواصفين فى القدرة على الوصف والتمثيل .

ذلك لان الوصف الجثمانى الذى يصور دقائق الموصوف إنما هو من الأدب النسوى الذى تستمده المرأة من قوة أنوثتها . ودقة ملاحظتها . وصفاء حسها ، ويقظة مشاعرها ، وللنساء أدب لا ينازعهن الرجال عليه . ولا يذودونهن عن غايته . وهو بهن أشبه . وعليهن أدل .

وفوق هذا الضرب من الوصف تجد من أدب النساء الذى لا يمارَين فيه

قولهن فى حض الرجل على المكارم ، وفى إغرائه بغشيان المكاره ، وتعبيره بالفرار من الحرب . وحسن استعطافه إذا حاول البطش بها ، وبكائه إذا فرق الدهر بينه وبينها . وذلك إلى إحسانها لأناشيد الطفولة التى تناجى بها الطفل وهى ترضعه ، أو ترقصه ، أو تنيمه ، وفيها تطبعه على الطبع السَّنِى والخلق النبيل . وكل ذلك مما تركت المرأة العربية فيه الكثير الموفور الذى ينم عن صفاء طبيعتها ، وقوة فطرتها ، فأنشأت بذلك أجمل صفحة من أدب العرب .

حسن الاستعطاف

سَفَّانة بنت حاتم : وزهير بن صُرَد

١ — سَفانة بنت حاتم

وجَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طيئ فريقا من جنده يقدُمهم على عليه السلام ، ففزع عَدِىّ بن حاتم الطائى — وكان من أشد الناس عداء لرسول الله — إلى الشام ، فصبَّح علىّ القوم ، واستاق خيلهم ، ونَعَمهم ورجالهم ونساءهم ، إلى رسول الله : فلما عُرض عليه الأسرى نهضت من بين القوم سَفَّانة بنت حاتم فقالت : يامحمد : هلك الوالد . وغاب الوافد . فان رأيت أن تُخلِّيَ عنى ولا تشمت بى أحياء العرب ! فان أبى كان سيد قومه : يفك العانى ، ويقتل الجانى ، ويحفظ الجار ، ويحمى الذِّمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكَلَّ ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد فى حاجة فرده خائبا ، أنا بنت حاتم الطائى : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ياجارية ! هذه

صفات المؤمنين حقا ، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه : خلوا عنها فأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق . وقال فيها : ارحموا عزيزا ذل : وغنيا افتقر ، وعالما ضاع بين جهال : وامتن عليها رسول الله بقومها فأطلقهم تكريما لها : فاستأذنته فى الدعاء له . فأذن لها ، وقال لأصحابه : اسمعوا وعوا فقالت : أصاب الله ببرك مواقعه : ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلاَّ وجعلك سببا فى ردها اليه ، فلما أطلقها رجعت إلى أخيها عدى وهو بدُومة الجَنْدَل . فقالت له : يا أخى ائت هذا الرجل قبل أن تَعْلَقَك حبائله : فانى قد رأيت هَدْيا ورأيا سيغلب أهل الغَلَبة ورأيت خصالا تعجبنى : رأيته يحب الفقير : وَيفُك الأسير : ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ، فان يكن نبيا فَللِسَّابق فضلُه : وان يكن ملكا فلن تزال فى عزِّ اليمَنِ ، فقدِم عدى إلى رسول الله فأسلم : وأسلمت سفانة .

٢ — لما أصيبت هوَازن فى حنين ؛ وفُرِّق نساؤها وذراريها ، وأموالها على المسلمين : وفد قوم ممن أسلموا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله إنا أهلٌ وعشيرة وقد أصابنا من البلاء مالم يخْفَ عليك . فامنن علينا مَنَّ الله عليك . وقام رجل من بنى سعد بن بكر — وهم عشيرة من هوازن ومنهم حليمة السعدية التى أرضعته عليه الصلاة والسلام — فقال : يارسول الله إن فى الحظائر [1] عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلْنك ولو أنا مَلَحنا [2] للحرث بن أبى شمَّرَ

[1] أى فى حظائر الغنائم [2] ملحنا : أى أرضعنا ومن أسماء اللبن الملح

أو للنعمان بن المنذر . ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به ، رجونا عطفه وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين . ثم قال :

امنُنْ علينا رسول الله فى كَرَم (١) فانك المرء نرجوه وننتظر

امنن على بيضة قد عاقها قدر (٢) مُمزَّقٍ شملُها ، فى دهرها غِير

ياخير من مَرِحت كُمْتُ الجياد به (٣) عند الهياج إذا ما أستوقد الشرر

إنا لنشكر آلاءً وإن كُفِرَتْ وعندنا بعد هذا اليوم مدَّخر

ياخير طفل ومولود ومنتخَب فى العالمين إذا ما حُصِّل البشر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها إذفوك تملؤه من مَحْضِها الدرر

إذ كنت طفلا صغيرا كنت ترضعها وإذ يزينك ما تأتى وما تذر

لاتجعلنَّا كمن شالت نعامته (٤) واستبق منا فانا معشر زهر

موازنة :

أما سفَّانة فقد توسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسابقة أبيها

---

[١] وروى فى حرم ـ بضم الحاء ـ [٢] يكنى عن المرأة المصونة بالبيضة أو بيضة الخدر [٣] الكمت : جمع كميت ـ بضم الكاف وفتح الميم ـ والكميت فرس تضرب حمرته إلى سواد

[٤] يقال شالت نعامة القوم اذا ذهب عزهم أو تفرقت كلمتهم أو ارتحلت جماعتهم أو ماقرأ عن آخرهم أقول وقد نزل لهم رسول الله عن كل ماناله ونال عشيرته من سبيهم وذراريهم واستشفعوا به الى المسلمين من جنده فنزل لهم المهاجرون والأنصار عن كل ماحازوه وأبى جماعة من الأعراب أن ينزلوا عما قسم لهم منهم

فى الفضل ، وايثاره لأعمال الخير ، وقيامه بكفالة المجد ، ومكانه فى زعامة العرب ، وأما زهير فقد مَتَّ إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعماته وخالاته وحواضنه اللواتى أصبحن فى الحظائر مع السبايا العانيات . وليس سواءً من تشفع إليك بذوات رَحمك ، اللواتى أظللنك بعطفهنّ ، وروّيتك بدَرّهنّ ، وما أصبحن فيه من أسر أنت مُوثقه ، وذلة أنت ضاربها ، وفى يدك وحدك فَكُّ إسارها ، وتفريج كرباتها — ومن تشفع اليك بأب لا تَصِلُه بك وشيجة رحم ، ولا تدنيه منك صلة جوار ، ولا تطوّله عليك سابقة جميل ، وإنما بسطتْ إليك من جليل فَعاله ، وجميل خلاله ماحبب اليك ذكره على مافيه من وثنية وجاهلية ، حتى أطلقتَ ابنته ، وأطلقت أسارى قومها تكرمة لها .

أما أسلوب سفّانة : فشعر منثور جاء على أتم ما يكون هذا الشعر نسقا ورونقا ، وصفاء نهج ، واطراد نظم ، وفيه من حسن الاستعطاف مايبلغ الغاية من قياد الأنفس والقلوب . فقد ذكرت موت الوالد ، وانقطاع الوافد ، وخوف شماتة الأعداء . ثم ذكرت المثل الأعلى للرجل الحرّ الشريف الكريم ، وقد أثر ذاك أبلغ الأثر فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم حتى اذا استأذنته فى الدعاء له قال لأصحابه: اسمعوا وعوا ، فكان أبلغ القول ، وكان آثر الدعاء .

وأما زهير : فكان نثره نثر مشافهة لا أثر للفن فيه ، وإنما الأثر فى موضوعه ، فان موضوعه لو قيل بأى قول ، وعُقد على أى أسلوب لكفى وأغنى .

وأما شعره فليس بالشعر المأثور ، وإنما هو مثل لما يقوله الرجل فى بديهته وارتجاله، فهو من أجل ذلك غير محكم القول ولا مبتكر المعانى .

ويرجع هذا التفاوت بين القولين الى أن حسن الاستعطاف من الأدب النِّسْوى الذى ينبعث عن ضعف المرأة ورقة قلبها ، فيصيب الغرض ، ويبلغ الغاية .

صفات فى فقرات

جَروة بنت غالب . وابن القِرِّيَّة

١ — جروة بنت غالب :

كانت جَرْوة بنت غالبٍ التميمية من شيعة على بن أبى طالب عليه السلام ، وكانت تقف بين الصفوف فى صِفِّين ، فتثير حمية الناس وتدفعهم إلى الاحاطة بجند معاوية . فلما ملك معاوية وَسِع العربَ حلمُه فلم ينتصر على خصم ، ولم ينتقم من عدو ، وكان قد احتجم يوما وهو بمكة ، فأرق ليلة ، فدعا بجروة بنت غالب — وكانت مجاورة لمكة — فلما دخلت قال لها : مرحبا ياجروة قد أَزْعجناك ، قالت : إى والله ياأمير المؤمنين ، لقد طُرِقتُ فى ساعة لا يُطرَق فيها الطير فى وَكره ، فأرعتَ قلبى ، وروَّعت صبيانى ، وأفزعت عشيرتى ، وتركت بعضهم يموج فى بعض ، يراجعون القول ، ويديرون الكلام ، خشيةً منك ، وشفقة عليّ ، فقال لها : ليسكن رُوعُك [1] ولتطِبْ نفسُك ، فان الأمر على خلاف ما ظننت : إنى احتجمت فأعقبنى

[١] الروع : موضع الخوف من القلب

ذلك أرقا ، فأرسلت اليك تخبريني عن قومك ، قالت : عن أى قومى تسألنى ؟ [١] قال عن بنى تميم . قالت : يا أمير المؤمنين : هم أكثر الناس عدداً ، وأوسعه بلداً ، وأبعده أمداً [٢] : هم الذهب الأحمر ، والحسب الأفخر ، قال فنزليهم لى [٣] قالت يا أمير المؤمنين ، أما بنو عمرو بن تميم فأصحاب بأس ونجدة ، وتحاشد وشده ، لا يتخاذلون عن اللقاء ، ولا يطمع فيهم الأعداء ، سِلْمهم فيهم . وسيفهم على عدوهم . قال : صدقت ونعم القوم لأنفسهم ! قالت : وأما بنو سعد بن زيد مناة . ففى العدد الأكثرون وفى النسب الأطيبون . يضربون إن غضبوا . ويدركون إن طلبوا . أصحاب سيوف وحجف [٤] ونزال وزلف [٥] . على أن بأسهم فيهم . وسيفهم عليهم ! وأما حنظلة فالبيت الرفيع ، والحسب البديع . والقرنُ المنيع المكرمون للجار : والطالبون للثار : والناقضون للأوتار [٦] . وأما البراجم فأصابع مجتمعة . وأكف ممتنعة : وأما طهيّة : فقوم هُوج [٧] وقِرْنٌ لَجُوج . وأما بنو ربيعة : فصخرة صماء وحية رقشاء [٨] يَقِرُّون لغيرهم ويفخرون بقومهم : وأما بنو يربوع فَفُرسان الرماح ، وأسود الصباح [٩]

---

[١] تريد عن أى قبيل فى قومى تسألنى [٢] أى أبعد الناس غاية

[٣] أى ضع كلا فى موضعه [٤] الحجف جمع حجفة ـ التروس من جلد أومن خشب [٥] الزلف الأقدام

[٦] الوتر : المظلمة تدعو إلى الثأر فهم ينقضون الأوتار : أى يحملون ذا الثأر على ترك ثاره

[٧] جمع أهوج [٨] الرقشاء من الأفاعى ما اختلط فيها السواد بالبياض

[٩] أسود الصباح : أى أسود الغارات لأن الغارات لا تكون الا فى الصباح

يعتنقون الأقران : ويقتلون الفرسان : وأما بنو مالك : فجمع غير مفلول وعز غير مجهول ، وأما بنو دارم : فكرم لا يُدَانَى ، وشرف لا يُسَامَى وعز لا يوازى . قال : أنت أعلم الناس بتميم ، فكيف علمك بقيس ! قالت كعلمى بنفسى : قال فخبرينى عنهم ، قالت أما ذبيان : فخطباء شعراء ، أعزة أقوياء ، وأما عَبْس : فجمرة لا تطفا ، وعقبة لا تُعلي ، وحية لا تُرقى (١) وأما هَوَازِن : فحلم ظاهر ، وعز قاهر ، وأما نُمَيْر : فشوكة مسمومة وهامة مذمومة (٢) وراية ملمومة (٣) ، وأما هلال : فاسمٌ فخمٌ ، وعزٌّ ضخم . قال لله أنت ! فما قولك فى قريش ! قالت يا أمير المؤمنين : هم ذِرْوَة السَّنام ، وسادة الأنام ، والحسب القَمْقام (٤) قال فما قولك فى على — عليه السلام — قالت : حاز والله فى الشرف حدا لا يوصف ، وغاية لا تعرف ، وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائى مما أتخوف . قال : قد فعلت ، وأمر لها بضيعة غلتها عشرة آلاف درهم .

ابن القِرِّيَّة .

كتب الحجاج إلى عماله بالرَّى وأصبهان وما يليهما ، يأمرهم أن لا يمر بهم أحد من قِبَل ابن الأشعث (٥) إلا بعثوا به أسيرا اليه ، فأُخذ ابن القِرِّية (٦) فيمن أُخذ ، فلما دخل عليه . قال أخبرنى عما أسأل عنه . قال سلنى عما شئت ، قال : أخبرنى عن أهل العراق ، قال : أعلم الناس بحقٍّ وباطل

---

[١] لا ترقى : أى لا تنفع فيها الترقية [٢] كناية عن الخبث والدهاء
[٣] راية ملمومة : أى يحتشد الناس تحتها [٤] القمقام : السيد العظيم
[٥] أحد الخارجين على بنى أمية وهو من سلالة ملوك كندة
[٦] اعرابى من أهل العراق كان من أئمة الفصحاء

قال فأهل الحجاز . قال : أسرع الناس إلى فتنة ، وأعجزهم فيها . قال : فأهل الشام . قال أطوع الناس لخلفائهم . قال : فأهل البحرين : قال نَبَطٌ [١] استعْرَبوا : قال فأهل اليمن : قال أهل سمع وطاعة : ولزوم الجماعة : قال فأهل اليمامة : قال أهل جفاء ، واختلاف أهواء . وصبر عند اللقاء : قال فأهل فارس قال : أهل بأس شديد ، وشر عتيد ، وريف كبير ، وقرًى [٢] يسير : قال فأخبرنى عن العرب : قال سلنى : قال قريش ! قال أعظمها أحلاماً وأكرمها مَقاماً : قال فبنو عامر بن صعصعة [٣] قال أطولها رماحا ، وأكرمها صياحا [٤] قال فثقيف : قال أكرمها جدودا ، وأكثرها وفودا : قال فبنو زُبَيد [٥] قال ألزمها للرايات ، وأدركها للثارات : قال فقضاعة [٦] قال أعظمها أخطارا ، وأكرمها نِجارا [٧] وأبعدها آثارا . قال : فالأنصار قال أثبتها مقاما ، وأحسنها اسلاما ، وأكرمها أياما : قال فتميم : قال أظهرها جَلَدا ، وأكثرها عددا . قال : فبكر بن وائل : قال أثبتها صفوفا ، وأحدها سيوفا ، قال فعبد القيس [٨] قال أسبقها الى الغايات وأضربها تحت الرايات قال : فبنو أسد قال أهل عدد وجَلَد ، وعسر ونكد قال : فلَخْم [٩] قال ملوك وفيهم نُوك [١٠] قال فجُذام [١١] قال يوقدون الحرب ثم يسعرونها ثم يلحقونها

[١] النبط : جبل يسكن سواد العراق ، وهو خليط من العرب والسريان
[٢] القرى : مايقدّم للضيف [٣] بطن من هوازن
[٤] يريد بالصياح القتال والغارة وكرم القتال النكاية بالعدوّ والعفة عن غنائمه
[٥] بطن من بطون اليمن [٦] حىّ من اليمن [٧] النجار الأصل
[٨] بطن من بنى أسد بن ربيعة [٩] حى من اليمن ومنهم كانت ملوك العرب من الجاهلية . [١٠] نوك جمع أنوك ـ بسكون النون : الأحمق
[١١] بطن من اليمن وينسبهم بعض النسابين الى تان .

ثم يَعْرُون (١) ، قال : فبنو الحارث ، قال : رعاة للقديم ، حماة للحريم . قال فَعك (٢) قال لُيوث جاهده ، فيها قلوب فاسدة ، قال: فتَغلِب ، قال يَصْدُقون إذا لقُوا ضربا ، ويسعرون إلى الأعداء حربا ، قال فغسان (٣) ، قال أكرم العرب احسابا ، وأثبتها أنسابا ، قال : فأى العرب فى الجاهلية ؟ قال كانت العرب تقول : حمير أرباب الملك ، وكندة كتاب الملوك ، ومذحِجُ أهل الطعان ، وهَمْدان (٤) احلاس الخيل (٥) والأزْد آساد الناس . قال فأخبرنى عن الأرضين ، قال سلنى ! قال الهند : قال بحرها در ، وجبالها ياقوت ، وشجرها عود ، وورقها عِطر ، وأهلها طغام (٦) كقِطع الحمام ، قال نخراسان ، قال ماؤها جامد ، وعدوها جاحد ، قال فعمان : قال : حرُّها شديد ، وصيدُها عتيد ، قال فالبحرين : قال كُناسة بين المصريين (٧) . قال فاليمن : قال أصل العرب ، وأهل البيوت والحسب ، قال فمكة :قال أهلها علماء جفاة ونساؤها كساة عراة (٨) قال فالمدينة ، قال رسخ العلم فيها وظهر منها . قال فالبصرة . قال شتاؤها جليد ، وحرها شديد ، وماؤها ملح ، وحربها صلح قال فالكوفة ، قال ارتفعت عن حر البحرين ، وسفلت عن برد الشام ،

[١] يريد أنهم يثيرون الحرب و يلحقونها بأخرى ثم يعجزون عنها [٢] عك بطن من اليمن وقد نسبهم بعض النسابين خطأ إلى عدنان [٣] شعب عظيم من اليمن وقد نزحوا إلى الشام فكان منهم ملوكها فى الجاهلية

[٤] حمير وكنده ومذحج وهمدان : كلها بطون يمنية [٥] الأحلاس جمع حلس - بكسر الحاء وسكون اللام أو بفتح الحاء واللام - مايوضع على ظهر البعير والفرس تحت الرحل أو السرج : أى أنهم لايكادون ينزلون عن ظهور جنبهم [٦] أصل الطغام أرذال الطير والسباع ، ثم استعرت للجماهير التى لا تعقل [٧] المصران : البصرة والكوفة والكناسة ماطرح من قمام البيوت [٨] أى تشف ثيابهن عما تحتها

فطاب ليلها ، وكثر خيرها ، قال فواسط ، قال جَدة بين حماة وكَنة [1]
قال وما حماتها وكنتها ؟ قال : البصرة والكوفة يحسدانها ، وما ضرها ودجلة والزّاب يتجاريان بافاضة الخير عليها ، قال فالشام ، قال : عروس ، بين نسوة جلوس .

موازنة .

الايجاز فن من القول لايحسنه النساء لأن فيه حشدا المعنى الكثير فى اللفظ اليسير . وفى ذلك من نفاذ البصر ، ورياضة الفكر ، وضبط جماح اللسان ما ليس من شيمة النساء ولا طبعهن ، فالمرأة بفطرتها مسهبة مسترسلة ، لاتدق فى معنى ، ولا تتعمق فى تفكير . وإن وجد من النساء من ندّت عن ذلك ، فقد خرجت عن سجية النساء ، ومن هؤلاء جروة بنت غالب . وفى موضوعنا هذا سئلت جروة عن قومها من تميم ، ونُظَرَائِهمْ من قيس ، وسئل ابن القريّة عن العرب والعجم ، وعن أقطار المعروف من الأرض . وقد أوجز الجواب حتى كفاه المضاف والمضاف اليه ، وهما كالكلمة الواحدة . ووصفت جروة فضائل القبائل ومذامها . ووصف ابن القرية طبائع الشعوب وغرائزها ، وليس سواء من أشاد بالقوم ونوّه بهم ، ومن كشف عن حقيقتهم ، وشف عن غريزتهم ، وأسفر عن مزيتهم وإنك لتجد ابن القرية قدوقع على خصائص الشعوب وقوع الحكيم البصير الذى أحاط علمه بأقطار الأرض ، وانتظمت معرفته أشتات الخلق .

وأين قول جروة فى وصف تميم : هم أكثر الناس عددا ،

[1] الكنة : امرأة الابن ، أو امرأة الأخ

وأوسعه بلدا ، وأبعده أمدا ، هم الذهب الأحمر ، والحسب الأفخر ، من قول ابن القرية فى وصف مكة « أهلها علماء جفاة ، ونساؤها كساة عراة ، بل لقد أحاط ببنى تميم وكفى حين قال فيهم « أظهرها جَلَدا ، وأكثرها عددا ، وقد اضطرت جروة — لاقتصارها على الفضائل والمذام — الى تكرار الصفات . لأن فضائل العرب ومذامهم محدودة فهى قَصر على الشجاعة والكرم ، وطلب الثار ، ورعاية الجار ، وفصاحة القول . وأضداد هذه الصفات . على أن المرأة اذا عالجت الايجاز فى الوصف الجثمانى أحكمته كما يحكم الرجل وصف الغرائز والطباع .

ومن أمثال ذلك ما حدثوا أن الحارث بن ظالم المرى ، قتل خالد بن جعفر العامرى . ثم لحق بحاجب بن زُرارة التميمى ، فاتبعه رجال من بنى عامر ، فبينما كانوا ببعض الطريق عثروا بامرأة من بنى تميم ، فتعرفوا منها حديث الحارث ، ثم احتجزوها فى رحالهم ، فترقبت غِرة القوم وأُفلتت وانطلقت الى حاجب فأخبرته خبر الرجال ، فقال لها أخبرينى أى قوم أخذوك ؟ قالت أخذنى قوم يقبلون بوجوه الظباء ، ويدبرون بأعجاز النساء . قال : أولئك بنو عامر . قال : فحدثينى من فى القوم . قالت رأيتهم يغدون على شيخ كبير ، لا ينظر بماقيه ، حتى يرفعوا له من حاجبيه . قال : ذلك الأحوص بن جعفر . قالت : ورأيت شابا شديد الخلق ، كأن شعر ساعديه حَلَق الدرع ! يعذِم القوم عذم (١) الجمل العضوض . قال : ذلك عُتْبة بن بشير بن خالد . قالت : ورأيت كهلا اذا أقبل ومعه فتيان يشرف القوم اليه ، فاذا نطق أنصتوا . قال : ذلك

[١] العذم عض الفرس وهى استعارة لحدة اللسان

عمر بن خويلد ، والفتيان ابناه : زُرعة و يزيد . قلت : ورأيت شابا طويلا حسنا اذا تكلم أنصتوا له ثم يؤلون إليه كما تؤُل الشول إلى فحلها (١) قال : ذلك عامر بن مالك . قالوا وجاء القوم فكانوا كما قالت ، وقال

ومما يتصل بسبيل من هذا الأسلوب ما حدثوا أن كعب بن مَعدان الأشقرى وفد الى الحجاج الثقفى من قبل المهلب ابن أبى صُفْرة ليبشره بالقضاء على الخوارج فأنشده وصفاً للموقعة ، فلما فرَغ من انشاده قال له الحجاج : كيف خلفت جماعة الناس ؟ قال : خلفتهم بخير ، قد أدركوا ما أمّلوا ، وأمنوا ما خافوا . قال فكيف كان بنو المهلب فيكم ؟ فقال كانوا حُماة السَّرْح نهار ، فاذا أَليَلُوا ففرسان البيات : قال فأيهم كان أنجد ، فقال كانوا كالحلْقة المفرغة لا يُدرَى أين طرفاها . قال فكيف أنتم وعدوكم ، فقال كنا اذا أخذنا عفونا ، واذا أخذوا أيسنامنهم ، واذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم . قال الحجاج : ان العاقبة للمتَّقين . كيف أفلتكم قطرى ، فقال كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذى نحب . قال : فهلا اتبعتموه ! فقال كان الحد عندنا آثر من الفَل (٢) . قال فكيف كان لكم المهلب وكنتم له ؛ فقال كان لنا منه شفقة الوالد وكان له منا بر الولد . قال فكيف اغتباط الناس ؟ فقال: فشا فيهم الأمن وشملهم النفَل (٣) قال أكنت أعددت هذا الجواب ؟ فقال : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال الحجاج : هكذا تكون والله الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيث وجهك

---

[١] أل فى مشيته أسرع ، والشول جمع شائله ، وهى ما أتى على بدء حملها أو رضعها سبعة أشهر [٢] الحل القطع والفل بقية المهزمين [٣] الغنيمة

ومن الايجاز الذى بلغ أبعد الغايات من عُظم الدلالة ، وقوة العبارة ، ذلك الذى أسوقه إليك :

١ — لما عقد على بن أبى طالب عليه السلام لواء الحرب لولده محمد ابن الحنفية يوم الجمل قال له :

تَزُولُ الجبالُ ولا تزُل [1] ، عَضَّ على ناجذِك ، أعِرِ اللهَ جُمْجُمتك . تِدْ فى الأرض قَدَمَكَ . ارْمِ ببصرك أقصى القوم . واعلم أن النصر بيد الله سبحانه .

أقول ولست تجد تعبيرا بلغ الغاية العظمى من القوة والسمو مثل ما تجد فى تلك الجمل الرائعة ، وانظر إلى قوله « تزول الجبال ولا تزل » فجعل زوال الجبال ممكنا محتملا حين لا يكون من الممكن أن تتحرك قدم ولده عن موضعها . ،أما قوله « أعِرِ الله جمجمتك » فمن أبلغ ما قيل فى الاستهانة بالموت ، فاذا تركت جمجمتك عارية فى يد الله ، فانك لا تبالى من أين تصيبك المنية ، وتأمل قوله « تد فى الأرض قدمك » ، وانظر إلى هذا الفعل الذى ائتلف من حرفين ، ومعناه اجعل قدمك ثابتة قارّة كالوتِد وتبين هل يغنى عنه فعل أو تكفى دونه عبارة ؟ وأما قوله « ارم ببصرك أقصى القوم » فهنالك المثل الأعلى للبطل الذى لا يبالى بما بينه وبين آخر العدوّ من روع وهول . وعُدة وعديد .

٢ — وكتب رضى الله عنه إلى بعض وُلاته :

أما بعد : فانك ممن أَستظهر [2] بهم على إقامة الدين ، وأقْمعُ بهم نَخْوَة

[١] أى احرص على أن يكون الأمر لك [٢] استعين

الاثم ، وأسُدَّ بهم لَهَاة الثغر المخُوف [١] ، فاستعِن بالله على ما أهمَّك ، واخلِط الشدة بضِغْثٍ [٢] من اللين ، وارْفُق ما كان الرفق أوفق ، واعتزم بالشدة حين لا يغنى عنك إلا الشدة ، واخفض للرعية جناحك ، وألن لهم جانبك ، وآس بينهم فى اللحظة والنظرة ، والاشارة والتحية ، حتى لا يطمع العظماء فى حَيفك ، ولا ييأس الضعفاء من عدلك ، والسلام :

٣ — ومن دعائه عليه السلام : اللهم ، إنى أعوذ بك أن أفتقر فى غناك ، أو أضلَّ فى هُدَاك ، أو أضام فى سلطانك ، أو أُضْطهَدَ والامر لك .

٤ — وكتب عمر رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص أمير مصر حين جهد أهل الحجاز عام الرَّمادة [٣] .

من عبد الله عُمَر بن الخطاب إلى عَمْرِو بن العاص :

سلام عليك ، أما بعد ، فما تبالى يا عَمْرُو إذا شبِعت أنت ومَنْ معك أن أهلِك أنا ومن معى ، والسلام ،

فرد عليه :

٥ — الى عبد الله أمير المؤمنين عُمر بن الخطاب من عبد الله عَمْرو ابن العاص .

السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد ، فقد أرسلتُ اليك بِعيرٍ أولُها عِندك ، وآخرها عندى ، والسلام .

---

[١] اللهاة لحمة حمراء فى أعلى الفم تشرف على الحلق وثغر البلاد طرفها أو موضع المخافة منها ، وفى هذه الجملة شبه على رضى الله عنه ثغر البلاد بثغر الانسان فجعل له لهاة [٢] الضغث : قبضة من الحشيش فيها الرطب واليابس

[٣] الرمادة : المجاعة الشديدة

٦ — وقعت بين الأخوين الكريمين محمد بن الحنفية ، والحسين ابن علي - جفوة ومهاجرة ، فكتب محمد الى أخيه :

أما بعد ، فان أبى وأباك عليٌّ بن أبى طالب ، لا تفضُلُنى فيه ولا أفضُلك ، وأمى امرأة من بنى حَنِيفة . وأمُّك فاطمةُ الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو مُلِئَتْ الأرض بمثل أمى لكانت أمك خيرامنها ، فاذا قرأت كتابى هذا فاقْدَم حتى تترضانى ، فانك أحق بالفضل منى ، والسلام

٧ — خطب عمر بن عبد العزيز أول خطبة بعد الخلافة فقال :

أيها الناس ، أصلحوا سرائركم تَصْلُحْ علانيتكم ، وأصلحوا آخرتكم تَصْلُحْ دنياكم ، وان امرأ ليس بينه و بين آدمَ أبٌ حى لمعرِق فى الموت

٨ — وصف ابن عباس عليا رضى الله عنهما فقال :

كان عليٌّ أمير المؤمنين يشبهُ القمر الباهر ، والأسد الخادر ، والفرات الزاخر ، والربيعَ الباكر : أشبهَ من القمر ضوءَهُ وبهاءه ، ومن الأسد شجاعتَه ومَضاءه ، ومن الفرات جودَه وسخاءه ، ومن الربيع خصبه وحياءه .

٩ — مر حَيان بن سَلمى بقبْر عامر بن الطُّفيل - وكان قد غاب عن موته - فقال : ماهذه الأنصاب ؟ قالوا نصبناها على قبر عامر بن الطفيل ، فقال ضَيَّقتمْ على أبى على وأفضلتم منه فضلا كثيرا ، ثم وقف على قبره وقال :

أنعِم ظلاماً يا أبا على ، فو الله لقد كنت تَشُنُّ الغَارة ، وتحمى الجارة سريعاً الى المولى بوعدك ، بطيئاً عنه بوعيدك ، وكنت لا تضل حتى يضلَّ النجم ، ولا تهاب حتى يهابَ السيل ، ولا تَعْطَشُ حتى يعطش البعير

وكنت والله خير ما تكون حين لا تظنُّ نفس بنفس خيرا ، ثم التفت اليهم ، فقال : هلا جعلتم قبر أبى على ميلا فى ميل !

١٠ — لما قتل المفضَّل بن المهلب دخل ثابت قُطْنَةَ (١) الْعَتَكِيّ على هند بنت الْمُهَلَّب (٢) والناس حولها جلوس يعزونها ، فأنشدها شعرا يبكى به فقيدها . فقالت له :

اجلس يا ثابت ، فقد قضيت الحق ، وما من المرزِئة (٣) بُدٌّ ، وكم من مِيتة ميت أشرفُ من حياة حى ، وليست المصيبة فى قتل من استشْهد ذابا عن دينه ، مطيعاً لربه ، وانما المصيبة فيمن قلت بصيرته ، وخَمَل ذِكْرُه بعد موته ، وأرجو أن لا يكون المُفضَّل عند الله خاملا .

١١ — دخلت امرأة من بنى أمية على عبد الله بن على بالشام بعد نكبة آلها ، فبكت ، فقال مِمَّ تبكين ! أجزعا على أهلك لما أصابهم ! قالت لا ، ولكنه ما كان يوم سرور الا وهو رهن بيوم مكروه ، وما امتلأت دار حَبَرة (٤) الا امتلأت عبرة .

١٢ — قيل لحُبىَّ المدنية : ما الجُرح الذى لا يندمل ! قالت حاجة الكريم الى اللئيم ثم لا يجدى عليه . قيل لها فما الشرف ! قالت : اعتقاد المِنَنَ فى أعناق الرجال تبقى للأعقاب

---

[١] شاعر اسلامى أموى من فرسان الشعراء . ولقب بقطنة لأن سهما أصابه فى إحدى عينيه فذهب بها فكان يغشيها بقطنة

[٢] هى ابنة القائد الأموى العظيم المهلب ابن أبى صفرة وكانت أفصح نساء عصرها . تزوجها الحجاج بن يوسف الثقفى وكانت أكرم نسائه عليه

[٣] المرزئة : المصيبة والنقص [٤] الحبرة : النعمة التامة

١٣ — حدّث اسحاق الموصلى عن رجل من أهل المدينة ، قال : كنت فى جِنازة عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب واذا امرأة تقول : واحَرَّاهُ عليك ! فسألت عنها ، فقالوا هذه أمه . فدنوت منها ، فقلت يا أم عبد الله ! ان عبد الله كان بعض البشر ، فقالت ان عبد الله كان ظهرا فانكسر ، وأصبح أجرا يُنتظر ، وان فى ثواب الله لعزاءً عن القليل ، وجزاءً على الكثير

١٤ — قالت هند بنت عتبة : المرأة غُلٌ ، ولا بد للعنق منه ، فانظر من تضعه فى عنقك

١٥ — رأت عائشة أم المؤمنين رجلا متماوتا ، فقالت : ما هذا ؟ قالوا : زاهد ، فقالت : كان عمر بن الخطاب زاهدا ، وكان اذا قال أسمع واذا مشى أسرع ، وإذا ضرب فى ذات الله أوجع

١٦ — بلغ عاتِمةَ [1] بنت عاتم ثَلبُ معاويةَ وعمرو بن العاص لبنى هاشم ، فقال لأهل مكة : أيها الناس ، ان بنى هاشم سادت فجادت ، وملَكتْ ومُلِّكتْ ، وفَضلتْ وفضِّلت ، واصطفت واصطُفيت ، ليس فيها كدرُ عيب ، ولا إفك رَيب ، ولا خسروا طاغين ، ولا خازين ، ولا نادمين ، ولاهم من المغضوب عليهم ولا الضالين

عشرون كلمة

للحكيم الكريم علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه

[١] احدى حكيمات العرب المعمرات زعم الجاحظ أنها أدركت الاسلام ، وقد بلغت أربعمائة سنة

السامع للغيبة أحدُ المغتابَيْن ، كفى بالظفر شفيعاً للمذنب ، كن لما فى يد الله أوثقَ منك بما فى يد الناس ، تنقاد الأمور للمقادير حتى يكون الحَيْف فى التدبير ، قرنت الهيبة بالخيبة ، والحياء بالحرمان . قصم ظهرى رجلان : جاهل مُتَنَسِّك ، وعالم متهتك ، لو كشف الغطاء ما ازددْت الا يقيناً الناس نيام ، فاذا ماتوا انتبهوا . الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . ما هلك امرؤ عرف قدره . المرء مخبوء تحت لسانه ، أنكى الأشياء لعدوك ألا يعرف أنك عدوه ، المرء عدو ما جهل ، النصح بين الملأ تقريع ، من كثر مزاحه لم يخلُ من حقد عليه أو استخفاف به ، المسئول حر ما لم يعِد ، لا تتكل على المنى فانها بضائع النُّوكى [1] كثرة الخلاف شقاق - احذروا نفار النعم فما كل شارد بمردود ، اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكراً للقدرة عليه .

صفحتان من عهدين

١ — من عهد على بن أبى طالب الى الأشتر النَّخعى حين ولاه مصر —

اعلم يا مالك أنى قد وجهتك الى بلاد قد جرَت عليها دول من قبلك من عدل وجَوْر ، وأن الناس ينظرون فى أمورك فى مثل ما كنتَ تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ، و يقولون فيك كما كنت تقول فيهم ، وانما يُسْتَدَلُّ على الصالحين بما يُجرى الله لهم على ألسنة عباده ، فليكن أحبَّ الذخائر اليك ذخيرةُ العمل الصالح ، فاملك هواك ، وشح بنفسك عما لا يحل لك ، فان الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحببت وكرهت ، وأشعِر

[١] جمع أنوك : الأحمق

قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعاً ضاريا تغتنم أكلهم ، فانهم صنفان : إما أخ لك فى الدين ، وإما نظير لك فى الخلق ؛ يفرُط منهم الزلل ، وتعرض لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ ؛ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فانك فوقهم ، وولى الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك ؛ وقد استكفاك أمرهم ، وابتلاك بهم ، ولا تنصبن نفسك لحرب الله ، فانه لا يدَى[1] لك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ، ولا تندمن على عفو . ولا تبجحن بعقوبة ، ولا تسرعنّ الى بادرة وجدت عنها مندوحة ، ولا تقولن إنى مؤمَّر آمر فأُطاع ، فان ذلك ادغال[2] فى القلب ، ومَنْهكة للدين ، وتقرب من الغِيَر[3] . واذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة[4] فانظر الى عُظم ملك الله فوقك ، وقدرته منك على ما تقدر عليه من نفسك ، فان ذلك يطامن اليك من طماحك ، ويكف عنك من غَربك[5] ويفىء اليك بما عزب عنك من عقلك . وإياك ومساماة الله فى عظمته ، والتشبه به فى جبروته ، فان الله يذل كل جبار ، ويهين كل مختال . أنصف الله ، وانصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومَن لك فيه هوى من رعيتك : فانك إن تفعل تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ! ومن خاصمه الله أدحض حجته ، وكان لله حربا حتى ينزع ويتوب ؛ وليس شىء أدعى الى تغيير نعمة الله

[١] أى لاطاقة لك ، مثنى يد [٢] فساد [٣] الغير : تغير الحال ، وانتقالها من صلاح إلى فساد [٤] المخيلة : الكبر [٥] للغرب معان كثيرة ، وهو هنا الحدة .

وتعجيل نقمته ـ من إقامة على ظلم . فان الله سميع دعوة المظلومين ؛ وهو للظالمين بالمرصاد . وليكن أحبَّ الأمور اليك أوسطُها فى الحق ، وأعمها فى العدل ، وأجمعها لرضى الرعية ، فان سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وإنّ سخط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة ، وليس أحد من الرعية أثقلَ على الوالى مئونة فى الرخاء ، وأقل معونة فى البلاء ، وأكرهَ للانصاف ، وأسألَ بالإلحاف ؛ وأقل شكرا عند الاعطاء ، وأبطأ عذرا عند المنع ، وأخف صبرا عند ملمات الدهر ـ من أهل الخاصة . وإنما عمود الدين ، وجُمّاع [1] المسلمين ، والعُدة من الاعداء ـ العامةُ من الأمة . فليكن صفوك لهم ، وميلك معهم . ليكن أبعدَ رعيتك منك ، وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس ؛ فان فى الناس عيوبا الوالى أحقُّ مَنْ سترها . فلا تكشفن عما غاب عنك منها . فانما عليك تطهير ماظهر لك . والله يحكم على ماغاب عنك ، فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك . أَطلق عن الناس عقدة كل حقد واقطع عنك سبب كل وِتْر ، وتغاب عن كل مالا يصلح لك . ولا تعجلن إلى تصديق ساع ، فان الساعى غشاش ، وإن تشبه بالناصحين .

من عهد مروان بن محمد

إلى ابنه عبد الله بن مروان

حين وجهه الى قتال الضحاك بن قيس الشيبانى

كتبه عبد الحميد بن يحيى

---

[1] جماع الشىء : مجتمع أصله .

استكثر من فوائد الخير ، فانها تَنْشرُ المحمدة ، وتقيل العثرة ، واصبر على كظم الغيظ ، فانه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة ؛ وتعهد العامة بمعرفة دخائلهم ، وتبطنِ أحوالهم ، واستثارة دفائنهم ، حتى تكون منها على رأى عين ، ويقين خبرة ، فتنعش عديمهم ، وتجبر كسيرهم ، وتُقَوِّم أوَدهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح فاسدهم ، فان ذلك من فعلك بهم يورثك العزة ، ويقدمك فى الفضل ، ويبقى لك لسان الصدق فى العامة ، ويحرز لك ثواب الآخرة ، ويردّ عليك عواطفهم المستنفرة منك ، وقلوبهم المتنحية عنك . قس بين منازل أهل الفضل فى الدين والحجى والرأى والعقل والتدبير والصيت فى العامة ، وبين منازل أهل النقص فى طبقات الفضل وأحواله ، والخمول عند مباهاة النسب ، وانظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل ، ويستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل ، وتبلغ درجة الشرف فى أحوالك المتصرفة بك ، فاعتمد عليهم مدخلا لهم فى أمرك ، وآثرهم بمجالستك لهم مستمعا منهم . وإياك وتضييعهم مفرِّطاً ، وإهمالهم مضيعا .

هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسراً ، وجمع لك شواذها مؤلفا ، وأهداها اليك مرشدا ، فقف عند أوامرها ، وتناه عن زواجرها ، وتثبت فى مجامعها وخذ بوثائق عراها ، تسلم من معاطب الردى ، وتنل أنفس الحظوظ ، ورغيب الشرف ، وتعلُ درج الذكر ، والله يسأل لك أميرُ المؤمنين حسنَ الارشاد ، وتتابع المزيد ، وبلوغ الأمل ، وأن يجعل ذلك بك إلى غبطة يُسَوِّغك إياها ، وعافية يُحِلك أكنافها ، ونعمة يلهمك شكرها فانه الموفق للخير ، والمعين على الارشاد ، منه تمام الصالحات ، وهو

مؤتی الحسنات ، عنده مفتاح الخير ، وبيده الملك ، وَهو على كل شیء قدير فاذا أفضيتَ نحو عدوك واعتزمت على لقائهم ، وأخذت أهبة قتالهم ، فاجعل دعامتك التی تلجأ اليها ، وثقتك التی تأمل النجاة بها ، وركنك الذی ترتجی منالة الظفر به ، وتكْتهفُ [١] به لمعالق الحذر - تقوى الله ، مستشعرا لها بمراقبته ، والاعتصام بطاعته ، متبعاً لأمره ، مجتنبا لسخطه ، محتذيا سنته ، والتوقی لمعاصيه ، فی تعطيل حدوده ، أو تعدی شرائعه ، متوكلا عليه فی ما صمدت له ، واثقا بنصره فيما توجهت نحوه ، متبريا من الحول والقوة فيما نالك من ظفر ، وتَلَقَّاك من عز ، راغبا فيما أهاب بك أمير المؤمنين من فضل الجهاد ، ورمی بك اليه محمود الصبر عند الله ، من قتال عدو الله للمسلمين أكلبهم عليهم ، وأظهرهم عداوة لهم ، وأقدحهم ثقلا لعامتهم ، وآخذهم برمقهم ، وأعلاهم عليهم بغيا ، وأظهرهم عليهم فسقاً وجورا ، وأشدهم على فيئهم ، الذی أصاره الله لهم ، وفتحه عليهم والله المستعان عليهم ، والمستنصر علی جماعتهم ، عليه يتوكل أمير المؤمنين ، وإياه يستصرخ عليهم ، واليه يفوض أمره ، وكفی بالله ولياً وناصرا ومعينا ، وهو القوی العزيز .

وقفة بين العهدين

ينزع عبد الحميد بن يحيی فی إسهابه وترسله عن علی بن أبی طالب رضی الله عنه . وهو قد علل ذلك البيان الفياض الذی تدفق علی قلمه بما حفظ فی أول نشأته من كلام علیٍّ عليه السلام . لذلك ترسم عليا فی تبسطه ، وجهد

[١] تعتصم

أن يكتب عهدا كعهده، وان لم تكن له حاجة إليه ؛ فعليّ قد زود بهذا العهد قائده الأشتر النخعَى حين ولاه مصر التى « جرت عليها بلاد قبله من عدل وجور » والتى كانت حديثة عهد بفتنة ذهبت بالخليفة المظلوم . فكان من الحق أن ينهج له القصد ويهديه السبيل . أما عبد الحميد فقد كتب العهد فيما زعموا الى ولى العهد وهو ذاهب الى الحرب ، وعجيب ان يُزَوَّدَ القائد وهو غادٍ الى القتال برسالة تقع فى قرابة خمسين صفحة من هذا الكتاب . وأكثره مما لا صلة للحرب به . وما رأينا أحدا من المؤرخين أثبت هذا العهد فى هذا المقام . وما عهدنا فى مثل هذا الموطن الا ايجاز القلم ، واسهاب السيف . وأغلب الظن أن عبد الحميد كتب هذا العهد ولا غرض له الا أن يعارض عهد عليّ بعهد آخر ، يضاعفه ثلاثة أضعاف . لذلك لا تجد لهذا العهد رِباطا يربطه ، ولا مدارا يدور عليه ، بل أكثره جمل مترادفة ، وموضوعات منتزعة ، لا تكاد تجمعها ألفة ، أو تصلها قرابة ،

وانظر اليه حين يسوق الى واليه بعض النصائح التى لا يصلها غرض ولا تضمها وشيجة ، كيف ينوء بها فى قوله « هذه خصال . . . » و يسوق فى هذا التنويه عشرين جملة متتابعة ، ثم يعود الى النصح بقوله : فاذا أفضيت نحو عدوك ، واعتزمت على لقائهم ، وأخذت أهبة قتالهم ، ثم يدعو لصاحبه فى مثل مانوه به . ثم يعود أدراجه إلى نصيحته .

أما علي رضى الله عنه فقد دق فى ترسله دقة لا يصل إليها أهل الايجاز، وذهبت كل فقرة من فقراته المتلاحقة بمعنى خاص لا يقوم به غيرها ، وانظر إلى

وصفه لأهل الخاصة كيف يقول فيه : وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة فى الرخاء ، وأقل معونة فى البلاء ، وأكره للانصاف ، وأسأل بالالحاف . وأقل شكرا عند الاعطاء . وأبطأ عذرا عند المنع . وأخف صبرا عند ملمات الدهر – من أهل الخاصة .

فهذه الجمل المتناسقة المتقابلة لم تقع على معنى واحد ، بل وقع كل منها على معنى خاص لابد منه . فاذا أحطت بالعهد كله وجدته يدور فى مدار واحد ، هو رياضة البطل المعتز بنفسه ، المعتد بقوته ، ليسوس أمة خارجة من فتنة عاتية ، ويحكم بلدا حكمته قبله دول كثيرة ظالمة أو عادلة .

مراسلة ومراجعة

١ – بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص :

كتب عمر رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص وهو أمير مصر .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص : سلام عليك .

أما بعد : فقد بلغنى أنه فشت لك فاشية : من خيل وإبل ، وبقر وعبيد ، وعهدى بك قبل ذلك ولا مال لك ، فاكتب إلىّ عن أصل هذا المال .

فأجابه بقوله :

بسم الله الرحمن الرحيم

لعبد الله عمر أمير المؤمنين ؛ سلام عليك ؛ فانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد : فانه أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية مال فشا لى ، وأنه يعرفنى قبل ذلك ولا مال لى ؛ وإنى أعلم أمير المؤمنين أنى ببلد ، السعرُ فيه رخيص ، وأَنى أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس ، وفى رزق أمير المؤمنين سَعَة . ووالله لو رأيت خيانتك حلالا ما خنتك ، فَأَقْصِر أيها الرجل ، فان لنا أحسابا هى خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا بها . ولعمرى إن عندك من لا يَذُم معيشة ولا تُذم له ، وإن كان ذلك لم يفتح لك قفلا ، ولم يَشرَكك فى عمل .

فعاوده عمر :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد : فانى والله ما أنا من أساطيرك التى تَسْطرُ ، و نَسْقِك الكلام فى غير مرجع ، لا يغنى عنك أن تزكى نفسك . وقد بعثت إليك محمد بن مَسلَمة فشاطره مالك ، فانكم أيها الرهط حبستم على عيون المال . لم يَزَعْكم عذر . تجمعون لأبنائكم . وتُمهدون لأنفسكم . أما إنكم تجمعون العار ، وتُمهدون النار ، والسلام .

٢ — بين على ومعاوية .

لما استحرّ القتل بالناس فى صِفِّين ، وخاف معاوية الهزيمة كتب إلى على عليه السلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

من معاوية بن أبى سفيان الى على بن أبى طالب :

أما بعد : فانى أحسبك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بك وبنا مابلغت ، لم نجنها على أنفسنا ، فإنا وإن كنا قدغُلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها ماينبغى أن نندم على مامضى ، ونصلح مابقى . فانك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو ، ولا أخاف من القتل إلا ماتخاف ، وقدوالله رقت الأجناد وتفانى الرجال ، ونحن بنى عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل إلا مالا يُستَذل به العزيز ، ولا يُسْتَرَقُّ به الحر ، والسلام .

فكتب اليه على عليه السلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فقد أتانى كتابك تذكر أنك لوعلمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بك وبنا مابلغت لم نجنها على أنفسنا ، فاعلم أنك وإيانا منها على غاية لم نبلغها بعد ، وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء فانك لست أمضى عَلى الشك منى على اليقين ، وليس أهل الشام بأحرصَ على الدنيا من أهل العراق على الآخرة ، وأما قولك : إنا بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل ، فليس كذلك : لأن أمية ليس كهاشم ؛ ولا حربا كعبد المطلب ، ولا أبا سفيان كأبى طالب : ولا المهاجر كالطليق ، وفى أيدينا فضل النبوة التى بها قتلنا العزيز ، ودان لنا بها الذليل .

٣ — بين معاوية وأبى موسى الأشعرى

كتب معاوية بن أبى سفيان إلى أبى موسى الأشعرى ليضمه إلى الشام بعد التحكيم .

أما بعد : فلوكانت النية تدفع خطأ لنجا المجتهد ، وأعْذَرَ الطالب [١] ولكنّ الحقّ لمن قَصَدَ له فأصابه ، ليس لمن عارضه فأخطأه ، وقدكان الحَكمان إذا حكما على رجل لم يكن له الخيار عليهما ، وقد اختار القوم عليك ، فاكْرَه منهم ما كرِهوا منك ، وأقبل إلى الشام فهى أوسع لك .

فأجابه أبو موسى :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد : فانى لم أقل فى علىّ إلا بما قال صاحبك فيك . إلا أنى أردت ما عند الله ، وأراد عَمْرو ما عندك ، وقد كانت بيننا شروط ، والشّورى عن تراض ، فلما رجع الأمر رجعْتُ ، فأما الحكمان وأنه ليس للمحكوم عليه الخيار ، فانما ذلك فى الشاة والبعير ، فأما فى أمر هذه الأمة ، فليس أحد آخذاً لها بزمامِ ماكرهوا ، وليس يَذْهبُ الحق لعجز عاجز . ولا مكيدة كائد . وأما دعوتك إياى إلى الشام ، فليست بى رغبة عن حَرَم ابراهيم عليه السلام [٢] .

بين عائشة أم المؤمنين ورسول على بن أبى طالب

لما قَدِم جند عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها الى العراق ، للطلب بدم عثمان ، أرسل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضوان الله عليه الى

[١] أى لو كانت النية تدفع عن المخطىء خطأه لنجا المجتهد إذا أخطأ وأعذر الطالب إذا خاب : أى ان المخطىء فى عمله لايشفع له حسن نيته ولااجتهاده فيه .

[٢] يريد بحرم ابرهيم الشام ، ومعنى ذلك أنه ارتضى الرحيل

القَعقاع بن عمرو [١] وقال له : القَ هذين الرجلين - يريد طلحة والزبير - فادعُهما الى الألفة والجماعة ، وعظم عليهما الفرقة . ثم قال له : وكيف أنت صانع فيما جاءك عنهما مما ليس عندك فيه وَصاة منى ؟ فقال : نلقاهم بالذى أَمرت . فاذا جاء منهما أمر ليس عندك فيه رأى ، اجتهدنا الرأى ، وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغى . فقال : أنت لها .

فلما قدم القعقاع البصرة بدأ بعائشة وقال لها : أى أمَّه ؟ ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أى بنى ! اصلاحُ بينِ الناس ، قال : فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما ، فبعثت اليهما ، فجاءا ، فقال : انى سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد ، فقالت : إصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ فقالا : متابعان قال فأخبرانى ما وجه هذا الاصلاح ، فو الله إن عرفناه لنصلُحن ، وان أنكرناه لا نصلح ؛ فقالا قتلُ قتلةِ عثمان ؛ فان هذا ان تُرك كان تركا للقرآن وان عمل كان احياء للقرآن ؛ فقال قد قتلتما قتلةَ عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب الى الاستقامة منكم اليوم [٢] قتلتم ستمائة رجل إلا رجلا ، فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم ،

---

[١] أحد فرسان الاسلام الذين سارت بهم الأمثال . ومن قول الصدّيق رضى الله عنه . لصوت القعقاع فى الجيش أنكى على العدوّ من ألف رجل .

[٢] لما ورد جند عائشة البصرة أرادوا قتل من سار الى عثمان ، فقاتلهم هؤلاء دفاعا عن أنفسهم ، وكانوا ستمائة ، فلم ينج منهم إلا حرقوص بن زهير السعدى ، فقد أجاره قومه وهم ستة آلاف ، فأصبح أهل الجمل ولا ثار لهم بالبصرة الا هذا الرجل ، فلما حجزه قومه أمعن أهل الجمل فى العراق يريدون الكوفة ، وذهب اليهم أمير المؤمنين رضى الله عنه ، فأرسل القعقاع قبل ذلك يدعوهم الى الألفة

وطلبتم الذى أفلت فمنعه ستة آلاف ، فان تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم [١] فالذى حذرتم وقرّبتمُ به هذا الأمر أعظمُ مما أراكم تكرهون ، وأنتم أحميتم مضرَ وربيعة من هذه البلاد ، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نُصرة لهؤلاء ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير ، فقالا : وقالت عائشة : فما دواء هذا الأمر ؟ فقال : لا أرى لهذا الأمر الا التسكين ، واذا سَكَنَ اختلجوا ، فان أنتم بايعتمونا فعلامة خير ، وتباشير رحمة ، ودرْك بثار هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وان أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثار ، فآثروا العافية تُرْزَقوها ، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ، ولا تُعَرِّضونا للبلاء ولا تَعَرِضُوا له فيصرَعَنا وإياكم ، وايمُ الله إنى لأقول ذلك وأدعوكم اليه وانى خائف ألا يتم حتى يأخذ الله من هذه الأمة التى قلّ متاعها ونزل بها ما نزل ، فان هذا الأمر الذى حدث أمر ليس يُقدَر ، وليس كالأمور ، ولا كقتل الرَّجلِ الرَّجلَ ، ولا النفر الرجل ، ولا القبيلة الرجل . فقال له القوم : أحسنت وأصبت ، فان جاء علىّ بمثل ما قلت صلح الأمر . [٢]

---

[١] أديلوا : أى نصروا بعد قهر .

[٢] أقول وقد عاد القعقاع بهذا القول إلى أمير المؤمنين رضى الله عنه ، فقبله قبولا حسنا ، وكاد أمر المسلمين يتم على الخير ، لو لا أن أهل الفتنة من المجلبين على عثمان دبروا الكيد للفريقين ، فأوضعوا السلاح فى الفريقين ، وهما فى هدأة من الليل ، وبثوا من أنبأ كليهما بأن صاحبه غدر به ، فكانت موقعة الجمل التى قتل فيها نيف وعشرة آلاف رجل من أصحاب رسول الله وتابعيه ، والتى عصفت بعد ذلك بأمر المسلمين وأوهنت قوتهم جميعا .

مأثور من الخطب

١ — خطب أبو بكر رضى الله عنه حين أشار عليه الصحابة بترك المرتدّين من العرب وشأنهم لأنه لا طاقة لمن بقى من المسلمين بالحرب

أيها الناس : من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فأن الله حىّ لا يموت ، أيها الناس أأَن كثر أعداؤكم وقلّ عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركَب ! والله لَيظهرنّ هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون، قوله الحق ، ووعده الصدق : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ — وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

أيها الناس ، والله لو أُفرِدتُ من جمعكم لجاهدتهم فى الله حق جهاده حتى أبلغ من نفسى عذرا أو أُقتلَ مقتلا ، والله أيها الناس لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت بالله ، إنه خير معين .

وخطب عمر رضى الله عنه :

أيها الناس ، إنه أتى علىّ زمان وأنا أحسب أن من قرأ القرآن يريد به الله عز وجل وماعنده ، نخيل إلىّ أن قوماقرءوه يريدون به الناس والدنيا ، ألاَ فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم ، ألا إنما كنا نعرفكم إذ يتنزل الوحى ، واذ رسول الله بين أظهرنا ينبئنا عن أخباركم ، فلقد رُفع الوحى ، وذهب النبى ، فانما نعرفكم بأقوالكم . ألا من رأينا منه خيرا ظننا به خيرا وأحببناه عليه ، ومن رأينا منه شرّا ظننا به شرا وأبغضناه

عليه ، سرائروكم بينكم وبين ربكم ، ألا وإنى إنما أبعث عمالى ليعلموكم دينكم وسنتكم ، ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ، ويأخذوا أموالكم ، ألا من رابه شئ من ذلك فليرفعه إلىّ ، فو الذى نفسى بيده لأنصفنكم منه .

فقام عمرو بن العاص ، فقال: يا أمير المؤمنين : أرأيت إن بعثت عاملا من عمالك ، فأدّب رجلا من رعيتك فضربه . أتقصُّه ؟ منه قال : نعم والذى نفس عمر بيده ، لأقصنه منه . فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصُّ من نفسه .

وخطب معاوية فى أهل المدينة :

إنا قدمنا إليكم . وإنما قدمنا على صديق مستبشر ، أو على عدو مستتر ، وناسٌ بين ذلك ينظرون وينتظرون ، (فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْخَطُونَ) ،ولست واسعا كلّ الناس ،فان كانت محمدةٌ فلا بد من مذمة ، فَلوماً هوْناً ، وإياكم والتى إن أخفيت أوبقتْ ، وإن ذُكرت أوثقت (١) .

وخطبت أم الخير بنت الحُرَيش البارقية فى صفين تحرض القوم على معاوية ، فقالت :

أيها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ . إن الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونوّر السبيل ، ورفع الْعَلَم ؛ فلم يدعكم فى عمياء مبهَمة ، ولا سوداء مدلهمَّة ، فالى أين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ! أم فراراً من المؤمنين ! أم فراراً من الزَّحف ! أم رغبة عن

[١] يريد بذلك وصف خيانه البيعة ونقضها فان إخفاء ذلك يوبق المرء : أى يهلكه بما يؤثر فى صدره من كوامن الحقد والضغينة ، واظهاره بوثقه : أى بأخذه بوثاقه

الاسلام ! أم ارتداداً عن الحق ! ! أما سمعتم الله عز وجل يقول : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ،

ثم رفعت رأسها الى السماء وهي تقول : اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، وبيدك يارب أزمة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله : هلموا رحمكم الله الى الامام العادل ، والوصى الوفى ، والصديق الأكبر ، إنها إحن بدرية [1] وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحدية ، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات عبد شمس . ثم قالت . قَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ صبرا معشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، وكأني بكم قد لقيتم أهل الشام لا تدرى أين يُسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى وعما قليل ليصبحن نادمين ، إنه والله من ضل عن الحق وقع فى الباطل ، ومن لم يسكن الجنة ذهب إلى النار . قد اجتهدت فى القول و بالغت فى النصيحة ، وبالله التوفيق ، وعليكم السلام ورحمة الله و بركاته .

وخطب أبو حمزة الشارى [2] بمكة !

صعد المنبر متكئاً على قوس عربية فخطب خطبة طويلة ثم قال :

يا أهل مكة ! تعيرونني بأصحابي ! تزعمون أنهم شباب ! وهل كان أصحاب

[١] تريد أن معاوية ما أثار الحرب إلا لينتقم لمن قتلهم المسلمون من أهله فى بدر

[٢] أحد نساك الخوارج وخطبائهم المعدودين ، ويدعى أبا حمزة الشارى والخوارج يسمون أنفسهم بالشراة ـ جمع شار : أى الذين باعوا نفوسهم من الله جل اسمه

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابا ! : نعم الشباب هم ، مكتهلون فى شبابهم ، غضيضةٌ عن الشر أعينهم ، بطيئة عن الباطل أرجلهم . قد نظر الله اليهم فى آناء الليل ، متثنية أصلابهم بمثانى القرآن ، اذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة ، بكى شوقا اليها ، واذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة ، كأن زفير جهنم فى أذنيه ، قد وصلوا كَلَال ليلهم بكلال نهارهم ، أنضاء [1] عبادة ، قد أكلت الأرض جباههم وأيديَهم وركبهم ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم ، من كثرة الصيام وطول القيام ، مستقلون لذلك فى جنب الله ، موفون بعهد الله ، منجزون لوعد الله ، اذا رأوا سهام العدو قد فوِّقت ، ورماحهم قد أشرعت ، وسيوفهم قد انتُضِيَت ، وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت ، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله . فمضى الشاب منهم قُدُماً حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه ، قد رُمِّلَت محاسن وجهه بالدماء ، وعفر جبينه بالثرى ، وأسرع اليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء ، فكم من مقلة فى منقار طائر طالما بكى صاحبها من خشية الله ! وكم من كف بانت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى سجوده ! وكم من خد عتيق وجبين رفيق قد فُلق بعمَد الحديد ! رحمة الله على تلك الأبدان ، وأدخل أرواحها الجنان .

ثم قال : الناس منا ونحن منهم الا عابد وثن ، أو كفرة أهل الكتاب أو إماماً جائرا ، أو شادا على عضده

[1] جمع نضو : أى مهزول .

زجر وتأنيب

« من السيدة زينب بنت علىّ عليه السلام »

ليزيد بن معاوية بعد مقتل الحسين

صدق الله ورسوله يايزيد : ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَاوا ٱلسُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ » أظننت يايزيد أنه حين أُخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء ، فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى . أن بنا هوانًا على الله وبك عليك كرامة ! وان هذا لعظيم خَطَرِكَ ! فشمخت بأنفك ، ونظرت فى عِطفك جذلان فرحا ، حين رأيت الدنيا مسوقة لك ، والأمور متسقة عليك . وقد أمْهِلت ونُفِّست . وهو قول الله تبارك وتعالى (وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ . إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرُكَ نساءك وإماءك ، وسوقُك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم قدهُتِكت ستورهن ، وصَحِلت حُدوجهن [1] مكتئبات تخدى [2] بهن الأباعر وَيحدو بهن الأعادى ، من بلد الى بلد ، لا يراقَبن ولا يؤوَين ، يتشوفهن [3] القريب والبعيد ، ليس معهن ولى من رجالهن . وكيف يستبطأ فى بِغضتنا من نظر الينا بالشَّنَف وَالشنآن ، والإحن والأضغان . أتقول « ليت أشياخى ببدر شهدوا » غيرَ متأثم ولا مستعظم وأنت تنكث ثنايا أبى

---

[١] صحلت : انشقت . والحدوج جمع حدج ـ بكسر الحاء ـ مركب للنساء كالمحفة [٢] خدا البعير والفرس أسرع [٣] يتشوفهن : أى يجتليهن

عبد الله بمخصرتك ! ولم لا تكون كذلك . وقد نكأت [١] القرحة واستأصلت الشأفة . باهراقك دماء ذرية رسول الله محمد ، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب . ولتردن على الله وشيكا موردهم ، ولتودن أنك عميت وبكمت . وأنك لم تقل : فاستهلوا وأهلوا فرحا . اللهم خذ بحقنا ، وانتقم لنا ممن ظلمنا . والله ما فريت الا فى جلدك ، ولا حززت الا فى لحمك ، وستر على رسول الله صلى الله عليه وسلم برغمك ، وعترته ولحمته فى حظيرة القدس يوم يجمع الله شملهم ، ملمومين من الشعث - وهو قول الله تبارك وتعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » وستعلم من بوأك ومكنك من رقاب المؤمنين . اذا كان الحكم الله ، والخصم محمداً صلى الله عليه وسلم ، وجوارحك شاهدة عليك بئس للظالمين بدلا ، وأيكم شر مكانا وأضعف جندا ، مع أنى والله يا عدو الله وابن عدوه أستصغر قدرك ، وأستعظم تقريعك ، غير أن العيون عبرى ، والصدور حرى ، وما يجزى ذلك أو يغنى عنا ، وقد قتل الحسين عليه السلام ، وحزب الشيطان يقربنا الى حزب السفهاء ، ليعطوهم أموال الله على انتهاك محارم الله ، فهذه الأيدى تنطف من دمائنا ، وهذه الأفواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الزوا كي يعتامها عسلان [٢] الفلوات ، فلئن اتخذتنا مغنما ، لتتخذنا مغرما ، حين لا تجد الا ما قدمت

[١] نكأ القرحة : حكها

[٢] عسلان : جمع عاسل . الذئب ، واعتام الشىء اختاره

يداك ، تستصرخ يا ابن مَرجانة ، ويستصرخ بك ، وتتعاوى ويتعاوى بك عند الميزان ، ووجدت أفضل زاد زودك معاوية ، قتلك ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ، فو الله ما اتقيتُ غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فو الله لا يُرحض عنك عارُ ما أتيت الينا أبداً ، والحمد لله الذى ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبان الجنان ، فأوجب لهم الجنة ، أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله ، فانه ولى قدير .



عيون من الشعر

١ — فى الحنين الى الوطن

قال ابن الدُّمَينة [١] يحن الى نجد

ألا يا صَبا نجدٍ [٢] متى هِجْتَ من نجدِ ... لقد زادنى مَسْراكَ وجداً على وجد

أأَنْ هتفت ورقاء فى رَوْنَقِ الضُّحَى ... على فننٍ غضِّ النبات من الرَّنْدِ [٣]

بكَيتَ كما يبكى الحزين صبابةً ... وذبتَ من الشوّق المُبرِّحِ والصَّدِّ

بكيت كما يبكى الوليد ولم تكن ... جَزُوعاً وأبديتَ الذى لم تكن تبدى

وقد زعموا أن المحب اذا دنا ... يَمَلُّ وأن النأى يَشْفى من الوجد

بكلٍ تداوينا ، فلم يُشْفَ ما بنا ... على أنَّ قرب الدار خير من البعد

على أن قرب الدار ليس بنافع ... اذا كان من تهواه ليس بذى وُد

وقال الشريف الرضى [٤] يحن إلى نجد

خذى نَفَسى ياريحُ مِن جانب الحمى ... فلاقى به ليلاً نسيم رُبَى نجدِ

---

[١] هو عبد الله بن عبيد الله العامرى التيمى ـ والدّمينة أمه ـ شاعر أموى غزل رقيق [٢] الصبا : ريح ندية تهب من الشرق اذا اعتدل الليل والنهار .

[٣] الورقاء من الحمام : ماخالط سوادها بياض ، والفنن : الغصن أو ما تشعب منه والرند : شجر طيب الرائحة من أشجار البادية . ومعنى البيت والذى بعده أتبكى كما يبكى الحزين لأنك سمعت ورقاء تهتف فى الضحى ؟ .

[٤] هو أبو الحسن محمد بن الحسين . ينتهى نسبه إلى الحسين بن على عليهما السلام . شاعر عباسى ممن جمعوا بين الاكثار والاجادة وكان نقيب الأشراف فى اخريات القرن الرابع ، وتوفى عام ٤٠٦ .

فان بذاك الحىِّ إلفا عهدتُه ... وبالرَّغم منى أن يطول به عهدى
ولولا تداوى القلب من ألم الجوى ... بذكر تلاقينا قَضيتُ من الوجد
شممت بنجد شِيحةً حاجرية [١] ... فأمطرتها دمعى وأفرشتها خدِّى
ذكرت بها ريا الحبيب على النوى ... وهيهات ذا ! يا بعد بينهما عندى
وإنى لمجلوب لى الشوقُ كلما ... تنفس شاك أو تألم ذو وجد
تَعرضُ رسلُ الشوق والركبُ هاجد ... فتوقظنى من بين نوامهم وحدى
وما شرب العشاق إلا بقيتى ... ولا وردوا فى الحب إلا على وردى

موازنة

كلا الشاعرين يحن إلى نجد ، ويبكى فراقه ، ويصبو إلى أحبابه فيه . وان كان الأول يحن حنين فطرة وطبع ، والثانى يحن حنين أدب وفن ، والأول بدوىٌّ ، والثانى حضرى ، والأول مبتدىء ، والثانى معارض .

وبين يدى تلك الفروق التى لها شأنها فى ميزان النقد بين الشاعرين نعرض للقصيدتين :

بدأ ابن الدمينة فاستقبل صبا نجد ، وسألها عن وقت مَهاجها من نجد ، وبثها ماحملته من وجد على وجد

أما الرَّضى : فقد طلب إلى الريح أن تأخذ نفسه وتلاقى به نسيم ربى نجد ، ثم علل ذلك بأن له هنالك إلفا يألفه ، ويؤلمه أن يطول عهده به

وحديث ابن الدمينة إلى الصبا حديث فطرة وطبع ، يبعثه الحب ، وتثيره

[١] الشيحة : واحده الشيح ، وهو نبات طيب الرائحة مر الطعم ينبت فى القيعان ، وحاجرية : نسبة الى الحاجر ، وهو منزل من منازل الحاج بالبادية .

العاطفة ، فان من شأن المحب المفارق أن يستنشى الريح اذا مرت بديار أحبابه ، وأن يؤثر مسراها فى ذات نفسه ، ومثار وجدانه .

وحديث الرضى حديث خيال وفن ، فليس مما يغنى المحب شيئاً أن تحتمل الريح نَفَسه إلى مهب نسيم أحبابه .

والصبا فى شعر ابن الدمينة أخف وقعا من الريح فى شعر الرضى ، ـ وزادنى مسراك ـ أحلى مساغا من ـ لاقى به ليلا ـ وفى تكرار نجد ووجد فى شعر ابن الدمينة . دلالة على الأثر القوى ، والحب المكين .

واليك فاسمع ماذكّر الشاعرين بأحبّتهما ، وما أبكاهما من آثارهم .

قال ابن الدمينة :

أأن هتفت ورقاء فى رونق الضحى على فنن غض النبات من الرَّند
بكيتَ كما يبكى الوليد ولم تكن جزوعا وأبديت الذى لم تكن تبدى

وقال الرضى :

شممت بنجد شيحة حاجرية فأمطرتها دمعى وأفرشتها خدِّى
ذكرت بها ريا الحبيب على النوى وهيهات ذا ! يا بُعد بينهما عندى

فالأول يبكى كما يبكى الوليد ، لأنه سمع هتاف الورقاء فى رونق الضحى على فنن غض النبات من الرند ، والثانى أبكاه أن يشم شيحة حاجرية ، فيذكر بها ريا الحبيب ، على بعد ما بينهما عنده . ولا أدرى كيف شم الشيح بنجد ، وهو يتحرق شوقا اليه !

وفى هذا الموطن لا يزال ابن الدمينة أحسن اختياراً للفظ من صاحبه وقوله : هتفت ورقاء ، وقوله : فى رونق الضحى ، و قوله : فنن

غض النبات ، كل هـذه ألفاظ مصقولة محببة مهذبة ، وأين تجد الشيحة الحاجرية من فنن الرند فى شعر ابن الدمينة ، وانظر حسن التشبيه فى قوله : بكيت كما يبكى الوليـد ، وكيف أتبع التشبيه بقوله : وأبديت الذى لم تكن تبدى ، فهذا القول مع رقته وتهذيب ألفاظه ، يقع بك على فطرة المحب الخافق القلب ، الثائر العاطفـة ، الدقيق الحس ، القوى الوجدان ، واذاوازنت بين تلك المحاسن التى لم تَعْدُ طبيعة المحب ، و بين المحاسن الفنية فى شعر الرضى ، وذلك كالمقابلة فى قوله : فأمطرتها دمعى وأفرشتها خدى وكالتذييل فى قوله : وهيهات ذا يا بعد بينهما عندى ، أقول إذا وازنت بين محاسن الشاعرين فى هذا الموطن ، رجح ابن الدمينة لأنه دلف إليك بقلبه وفطرته ، حين تجمل الرضى بفنه وصناعته .

ثم انظر كيف صور ابن الدمينة حيرة المحب المحروم ممن يحب ، على القرب والبعد فى قوله :

وقد زعموا أن المحب اذا دنا   يمَل ، وأن النأى يشفى من الوجد
بكلٍّ تداوينا فلم يُشفَ ما بنا   على أن قرب الدار خير من البعد

فهل رأيت صورة صادقة للمحب الصادق كهذه الصورة ؟ وهل رأيت ديباجة أصفى ، وأسلوبا أرق من هذه الديباجة الماثلة فى هذا الأسلوب ؟

ومن الحنين المطبوع الذى يملك النفس رقة وسهولة قول الصِّمة القُشَيْرى :

أقول لصاحبى والعِيسُ تهوى   بنا بين المُنيفة فالضِّمار (١)
تمتع من شَميم عَرَار نجدٍ   فما بعد العشية من عَرَار (٢)

[١] المنيفة والضمار : موضعان من البادية [٢] العرار : النرجس البرى أو البهار

ألا يا حبذا نفحاتُ نجد ... وريّا روضهِ غِبَّ القطار [١]
وعيشُكَ [٢] إذ يحُلُّ القومُ نجداً ... وأنت على زمانك غيرُ زارِ
شهور ينقضين وما شعَرْنا ... بأنصافٍ لهن ولا سِرار [٣]
فأمّا ليْلُهنّ فخيرُ ليل ... وأقصَرُ ما يكون من النهارِ

ومن أحسن الحنين: قول أعرابى نزل الريف، فسمع صوت الناعورة فقال:

باتت تحِنُّ وما بها وجدى ... وأحِنُّ من وَجد إلى نجد
فدموعها تحيا الرياض بها ... ودموع عينى أحرقت خدى
لو قيس وجد العاشقين إلى ... وجدى لزاد عليه ماعندى

وقالت فتاة أعرابية احتملها زوجها إلى مكان قصى:

ألاَ أيها الركْبُ اليمانون عرِّجوا ... علينا فقد أضحى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نَعمانُ بَعدنا ... وحُبَّ إلينا بطن نُعمانَ واديا
فان به ظِلا ظليلا ومشرَبا ... به نُقعَ القلبُ الذى كان صاديا

وقالت امرأة نجدية تزوجها رجل من تِهامة ـ فلما نقلها إلى وطنه قالت: ما فعلت ريح من نجد كانت تأتينا، يقال له الصَّبا؟: ما رأيتها ههنا، فقال لها: يحجزُها عنا هذان الجبلان، فأنشأت تقول:

[١] القطار: جمع قطر: المطر، وغب القطار عقب المطر
[٢] عيشك معطوف على نفحات: أى وحبذا عيشك.
[٣] أنصاف الشهور: أى وقت تمام القمر، والسرار: الليلة التى يختفى فيها الهلال.

أيا جبلي نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص إلىَّ نسيمها
فان الصبا ريح إذا ما تنفست على قلب محزون تجلت همومها
أجد بردها أو تشف منى حرارة على كبد لم يبق إلا صميمها

وقال حفص بن الأروع الطائى : كنت أسيراً فى بلاد طيء ، فاذا بجارية تسوق أعنزا ، فقلت لها : يا جارية ! أىّ البلاد أحبّ إليك ؟ فقالت :

أحبّ بلاد الله ما بين منعج إلىّ وسلمى أن يصوب سحابها [1]
بلاد بها حل الشباب تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها

٢ — فى الأدب والحكمة

حاتم الطائى ، وعدى بن زيد

قال حاتم [2] يخاطب امرأته ماوية ، وكانت هجرته لاحتكام السخاء به ، حتى لم يبق على ماله :

أماوىّ ما هذا التجنب والهجر وقد عذرتنى فى طلابكم العذر [3]
أماوىّ إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوىّ إنى لا أقول لسائل اذا جاء يوما حلّ فى مالى النذر [4]

[١] منعج وسلمى : موطنان من نجد ، وصابّ السحاب انصبّ ، تريد أن أحبّ المواطن اليها ما بين هذين المكانين ، وهى ترجو أن تعشب أرضها مما يصوب سحابها .

[٢] هو حاتم بن عبدالله بن سعد الطائى : الشاعر الفارس ، الذى ضربت بجوده الأمثال . وقد وصفته فأحسنت وصفه ابنته سفانة فى حديثها الذى اسلفناه .

[٣] العذر : جمع عذير قابل العذر [٤] أى وجبت علىّ حقوق لغيرك .

أماوىَّ إما مانِـع فمُبـيِّن وإما عطاء لا ينهْـنهه الزَّجرُ(١)

أماوى ما يغـنى الثَّـرَاء عن الفتى اذا حَشْرَجت(٢) يوماً وضاق بها الصدر

اذا أنا دلاَّنى الذين يـلوننى بِمُظلمـة لُجٍ ، جوانبها غبرُ(٣)

وراحوا سراعا ينفِضون أكفَّهم يقولون قد أدمى أنا ملنا الحفْرُ

أماوى إن يصبح صداى(٤) بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا خمر

ترىْ أن ما ألعقتُ لم يك ضرّنى وأن يدى مما بخلت به صِفر

أماوِى إنى رُبَّ واحـدِ أمه أخـذت فلا قتل عليه ولا أسر

وقد عـلم الأقوام لو أن حاتماً أراد ثراء المال كان له وفر

غنينا زمانا بالتقصـد والغنى وكلا سقانا وهو كاسبنا الدهر

فما زادنا بغيا على ذى قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

وقال عدى بن زيد العبادى(٥) :

أعاذلَ ما أَدنى الرشادَ من الفتى وابعدَه منه اذا لم يسدَّد

أعاذل قد لاقيت ما يزعُ الفتى وطابقت فى الِحجْلين مَشي المقيدِ(٦)

أعاذل ما يدريك أن منيتى إلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد

---

[١] ينهنهه : أى يكف .

[٢] الحشرجة : تردد صوت النفس عند الموت ، والضمير فى حشرجت يرجع الى الروح [٣] مظلمة : أى حفرة مظلمة ، ولج : جمع لجة ، وهى الشديدة الظلمة . [٤] الصدى : ما يبقى من الميت فى قبره .

[٥] شاعر حكيم من شعراء الجاهلية ، كان ترجمانا لكسرى ، ومستشارا عربيا له

[٦] طابق فى السير اذا سار برجليه معا ، والحجل : القيد

أعاذلَ من يُكتب له الموت يَلقه كفاحا ومن يكتب له الفوز يسعد [١]
أعاذل أن الجهل من لذة الفتى وإن المنايا للرجال بمرصد
فذرنى فمالى غيرُ ما أُقض ان مضى أمامِىَ من مالى اذا خف عوّدى [٢]
وحُمّت لميقات الىّ منيتى وغودِرْتُ قدوُسّدت أم لم أوسّد
وللوارث الباقى من المال فاتركي عتابى فانى مصلح غير مفسد
اعاذل من لا يُصلح النفس خاليا عن الناس لا يَرْشُدْ لقول المفنّد
كفى زاجرا للمرء أيامُ دهره تروح له بالواعظات وتغتدى

موازنة :

كلا الشاعرين عوتب فى الكرم ، ورد على من عاتبه ، وكلاهما جعل ماله فداء عرضه ، ووِقاء سيرته ، وكلاهما استهان بالمال يتركه صاحبه ولا يغنى عنه بعد موته ، وكلاهما افتخر بخلاله . وأرسل الحكم ، وضرب الأمثال

ومما قالا فيه عن هوان المال يتركه صاحبه ولا يغنى عنه ، قول حاتم : أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى . . الى أن يقول :

أماوى أن يصبح صداى بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا خمر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضرنى وأن يدى مما بخلت به صفر

ويقابله قول عدى :

[١] الكفاح : المواجهة .
[٢] خف عودى : كناية عن انفضاض العواد بعد الموت .

أعاذل ما يدريك أن منيتى . إلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد

وواضح من مقابلة الطائفتين من شعر الشاعرين ، أن الأول أحسن وصفا للموت ، وما بعد الموت ، فى حين أن الثانى أحسن إجمالا للقول ، وإرسالا للحكمة ، فقد جعل كل بيت من أبياته حكمة قائمة ، ومثلا مستقلا ، حتى اذا استخلص كلاهما ماريد من هوان المال ، وأنه لا يغنى شيئا ، قال حاتم : ترى أن ما أنفقتُ . . .

وقال عدى :

فذرنى فمالى غيرُ ماأقض انمضى أمامى من مالى اذاخف عودى [١]

ثم قال :

وللوارث الباقى من المال فاتركي عتابى فانى مصلح غير مفسد

فكان عدى أبعد معنى ، وكان حاتم أسمح لفظا ، فان عديا ذكر أن ليس للمرء من ماله إلا ما أنفقه ، وأن مآل المال المدخر إلى نهب الوارثين ، واقتصر حاتم على أن يقول أن ما أنفقه لم يضره ، وأن ما تركه لم ينفعه ، وقد أتى بذلك المعنى القليل فى أسلوب واضح مبين .

على أن كلا الشاعرين قد انفرد عن صاحبه بحكمة خالدة ، بلغ فى صوغها وحسن سياقها أبعد الغايات . فأما الأول ، فقال :

أماوى ان المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

[١] ومعنى البيت : دعنى فليس لى من المال الاما أمضيه : أى أنفقه حين يعرضون مالى أمامى بعد الموت . وقد كان العرب يسوقون مال الميت أمامه ، مباهاة بما ترك .

وأما الثانى ، فقال :

كفى زاجرا للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتدى

وقال الحطيئة (١) فى الكرم - وهى خير ما قيل فيه - :

وَطَاوِى ثَلَاثٍ (٢) عَاصِبِ الْبَطْنِ مُرْمِلٍ (٣)

بِبَيْدَاءَ لَمْ (٤) يَعْرِفْ بِهَا سَاكِنٌ رَسْمَا (٥)

أَخِى جَفْوَةٍ (٦) فِيهِ مِنَ الْأُنْسِ وَحْشَةٌ

يَرَى الْبُؤْسَ فِيهَا مِنْ شَرَاسَتِهِ نُعْمَى

وَأَفْرَدَ فى شِعْبٍ (٧) عَجُوزاً إِزَاءَهَا ثَلَاثَةُ أَشْبَالٍ تَخَالُهُمُ بَهْمَا (٨)

حُفَاةً عُرَاةً مَا اغْتَذَوْا خُبْزَ مَلَّةٍ (٩) وَلَا عَرَفُوا لِلْبُرِّ مُذْ خُلِقُوا طَعْمَا

رَأَى شَبَحاً وَسْطَ الظَّلَامِ فَرَاعَهُ فَلَمَّا رَأَى ضَيْفاً تَشَمَّرَ وَاهْتَمَّا

فَقَالَ هَيَا رَبَّاهُ ضَيْفٌ وَلَا قِرًى ! بِحَقِّكَ لَا تَحْرِمْهُ تَا اللَّيْلَةَ اللَّحْمَا

فَقَالَ ابْنُهُ لَمَّا رَآهُ بِحَيْرَةٍ أَيَا أَبَتِ اذْبَحْنِى وَيَسِّرْ لَهُمْ طُعْمَا

وَلَا تَعْتَذِرْ بِالْعُدْمِ عَلَّ الَّذِى طَرَا يَظُنُّ لَنَا مَالاً فَيُوسِعَنَا ذَمَّا

فَرَوَّى قَلِيلاً ثُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً وَإِنْ هُوَ لَمْ يَذْبَحْ فَتَاهُ فَقَدْ هَمَّا

[١] هو أبو مليكة جرول بن أوس بن مالك : نشأ منبوذا لا يعرف له أهل ولا وطن . لذلك انتسب إلى قبائل مختلفة ، وشعره فى الطبقة الأولى من القوة والجزالة لولا أنه أكثر من قبيح الهجاء . ومات فى العقد الرابع من القرن الأول .

[٢] أى مقيم ثلاث ليال على الطوى : أى الجوع [٣] المرمل : الذى نفد زاده [٤] صحراء [٥] رسم الدار : ما كان من آثارها لاصقا بالارض .

[٦] الجفوة : الوحشة [٧] الشعب : الطريق فى الجبل [٨] جمع بهمة : الصغير من أولاد الضأن والمعز . [٩] الملة : الرماد الحار والجر .

فَبَيْنَا هُمَا عَنت عَلَى الْبُعْدِ عَانَةٌ (١)

قَدِ انْتَظَمَتْ مِنْ خَلْفِ مِسْحَلِهَا نَظْمَا (٢)

عِطَاشاً تُرِيدُ الماءَ فَانْسابَ نَحْوَهَا عَلَى أَنَّهُ مِنْهَا إِلَى دَمِهَا أَظْمَا

فَأَمْهَلَهَا حَتَّى تَرَوَّتْ عِطَاشُهَا فَأَرْسَلَ فِيهَا مِنْ كِنَانَتِهِ سَهْمَا

فَخَرَّتْ نَحُوصٌ (٣) ذَاتَ جَحْشٍ سَمِينَةٌ قَدِ اكْتَنَزَتْ شَحْماً وَقَدْ طُبِّقَتْ لَحْمَا

فَيَا بِشْرَهُ إِذْ جَرَّهَا نَحْوَ قَوْمِهِ وَيَا بِشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلْمَهَا يَدْمَى

وَبَاتُوا كِرَامًا قَدْ قَضَوْا حَقَّ ضَيْفِهِمْ وَمَا غَرِمُوا غُرْمًا وَقَدْ غَنِمُوا غُنْمَا

في الفخر والاباء

كانت قريش قد تحالفت على بنى هاشم لحمايتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو طالب بن عبد المطلب يذكر تلك المحالفة ويرد عليها :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لَا وُدَّ فِيهِمُ وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ الْعُرَى وَالْوَسَائِلِ

وَقَدْ صَارَحُونَا بِالْعَدَاوَةِ وَالْأَذَى وَقَدْ طَاوَعُوا أَمْرَ الْعَدُوِّ الْمُزَايِلِ (٤)

صَبَرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمْرَاءَ سَمْحَةٍ وَأَبْيَضَ عَضْبٍ مِنْ تُرَاثِ الْمَقَاوِلِ (٥)

وَأَحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ أَهْلِي وَإِخْوَتِي

وَأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالْوَصَائِلِ (٦)

---

[١] العانة : القطيع من أتن الوحش [٢] المسحل : مقدم حمر الوحش .

[٣] النحوص من الاتن : ما ولد لها . [٤] المزايل : المغارق

[٥] سمحة : أى لينة يريد بها الرمح، والعضب : القاطع يريد به السيف ، والمقاول: ملوك اليمن [٦] الوصائل : جمع وصيلة حبرات اليمن ، وكانت تكسى بها الكعبة وأول من كساها بها تبع أبو اليمن والمراد بامساك الوصائل إمضاء العهد على المقاومة .

قِيَامًا مَعًا مُسْتَقْبِلِينَ رِتَاجَهُ ... لَدَى حَيْثُ يَقْضِى حِلْفَهُ كُلُّ نَافِلِ [١]
أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ ... عَلَيْنَا بِسُوءٍ أَوْ مُلِحٍّ بِبَاطِلِ
وَمِنْ كَاشِحٍ يَسْعَى لنا بِمَعِيبَةٍ ... وَمِنْ مُلْحِقٍ فى الدِّينِ مَا لَمْ نُحَاوِلِ [٢]
وَبِالْبَيْتِ حَقِّ الْبَيْتِ مِنْ بَطْنِ مَكَّةٍ ... وَبِاللهِ إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِغَافِلِ
وَبِالْحَجَرِ الْمُسْوَدِّ إِذْ يَمْسَحُونَهُ ... إِذَا اكْتَنَفُوهُ بِالضُّحَى وَالْأَصَائِلِ
وَمَوْطِىءِ إِبْرَاهِيمَ فى الصَّخْرِ رَطْبَةً ... عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِياً غَيْرَ نَاعِلِ
وَلَيْلَةِ جَمْعٍ [٣] وَالْمَنَازِلِ مِنْ مِنًى ... وَهَلْ فَوْقَهَا مِنْ حُرْمَةٍ وَمَنَازِلِ
فَهَلْ بَعْدَ هٰذَا مِنْ مَعَاذٍ لِعَائِذٍ ... وَهَلْ مِنْ مُعِيذٍ يَتَّقِى اللهَ عَادِلِ
يُطَاعُ بِنَا أَمْرُ الْعِدَا ! وُدَّ أَنَّنَا ... يُسَدُّ بِنَا أَبْوَابُ تُرْكٍ وَكَابُلِ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ نَتْرُكُ مَكَّةً ... وَنَظْعَنُ إِلَّا أَمْرُكُمْ فى بَلَابِلِ [٤]
كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ يُبْزَى [٥] مُحَمَّدٌ ... وَلَمَّا نُطَاعِنْ حَوْلَهُ وَنُنَاضِلِ
وَنُسْلِمُهُ حَتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ ... وَنُذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ
وَيَنْهَضَ قَوْمٌ بِالْحَدِيدِ إِلَيْكُمُ ... نُهُوضَ الرَّوَايَا تَحْتَ ذَاتِ الصَّلَاصِلِ [٦]

---

[١] الرتاج : الباب العظيم ، والنافل : المقطوع .
[٢] الكاشح : الذى يضمر العداوة .
[٣] جمع : أهى المزدلفة ، يجتمع فيها الناس قبل نزوهم منى [٤] نترك مكة : أى لانتركها ، والبلابل جمع بلبله — بفتح الباءين — وهى الهم والوسواس .
[٥] يبزى : أى يقهر ويستذل ، وهو عن حذف حرف النفى .
[٦] الروايا جمع راوية ، وهى الناقة التى تحمل الماء ، وذات الصلاصل : بقية الماء فى الروايا — القرب — .

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ (١)
يَلُوذُ بِهِ الْهُلَّاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِى رَحْمَةٍ وَفَوَاضِلِ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ
حَدِبْتُ بِنَفْسِى دُونَهُ وَحَمَيْتُهُ وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذُّرَا وَالْكَلَاكِلِ (٢)

وقال أرْطَاةَ بن سُهَيَّةَ المُرِّى (٣) :

إنْ تلقنِى لا ترَى غيرى بناظرة تَنسَ السلاحَ وتعرفْ جبهةَ الأسد
ما ذا أظنُّك تغنِى فى أخى لبدٍ من أسْدِ خفَّانَ جابى العين ذى لبد (٤)
أبى ضَراغمة غُبرٍ يُعَوِّدها أكلَ الرجال متى يبدأ لها يعُدِ
يأيها المتمنى أن يلاقينى إن تنس آتِك أو إن تبغنى تجد
نقض اللبانة مِن مُرٍّ شرائعُهُ صعبِ المقادة تخشاه فلا تعُدِ (٥)
متى ترِدنى لا تصدُرْ المُصدِرَة فيها نجاةٌ وان أصْدِرك لا ترِدِ (٦)
لا تحسَبنِّى كفقْعِ القاع ينقره جانٍ بإصبعهِ أو بيضةِ البلد (٧)

---

[١] هذا وصف لرسول الله صلى الله عليه وسلم . والثمال : الملجأ والغياث .
[٢] الحدب : العطف والاشتقاق ، وذروة الناقة : أعلى سنامها وكلكلها : ما بين محزمها الى ما مسّ الأرض منها . [٣] شاعر فارس من شعراء العهد الأموى [٤] أخى لبد الأولى : اسم من أسماء الاسد ، وذى لبد الثانية : صفة له ، واللبد جمع لبدة : الشعر المتدلى على كتفى الأسد [٥] الشريعة : المورد [٦] معنى البيت : ان قصدتنى لتختبرنى لا ثقلت منى وان أتركك تذهب من أمامى لا تعد ثانية [٧] الفقع : البيضاء الرخوة من الكمأة ، ويضرب بها المثل فى الذلّ لأنها لا تمتنع من يجليها ، ولأنها توطأ بالأرجل ، و بيضة البلد بيضة النعامة التى تبيضها وتتركها فلا يسأل عنها أحد ، و بيضة البلد : الرجل الذى يجتمع عليه الناس ولا ينازعونه السيادة ، وبها يضرب المثل فى الذلّ والعزّ .

وقال قَطَرِىُّ بن الفُجاءَةِ الخارجى (١) :

أقول لها وقد طارت شَعاعا ... من الأبطال ويحك لن تُراعى (٢)
فانك لو طلبت بقاءَ يوم ... على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمستطاعِ
وما ثوب البقاء بثوب عز ... فيُطوَى عن أخى الخَنَع اليراعِ (٣)
سبيلُ الموت غاية كل حى ... وداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يُعتَبَطْ يَسأم ويهرمْ ... ويسلمْهُ المنون إلى انقطاع (٤)
وما للمرء خير فى حياة ... اذا ما عُدَّ من سَقط المتاع

وقال رجل من شذاذ بنى تميم يُدعَى أبا النَّشناش (٥) :

وسائلةٍ أين الرحيلُ وسائل ... ومن يسألُ الصعلوك أين مذاهبه (٦)
مَذاهبه أنَّ الفِجاج عريضةٌ ... إذا ضن عنه بالنوال أقاربه
إذا المرء لم يَسرح سواما ولم يُرِحْ ... سواما ولم يبسط له الوجهَ صاحبُهُ (٧)
فَلَلْموت خير للفتى من قعوده ... عديما ومن مَولًى تُعاف مشاربه
ودَوِّيَّةٍ قفر يحار بها القطا ... سرت بأبى النَّشناش فيها ركائبه (٨)

---

[١] هو إمام الخوارج وقائدهم وسيد فرسانهم . [٢] شعاعا : أى متفرقة .
[٣] الخنع والخنوع : الذلّ والضيم ، واليراع : الجبان المستطار القلب .
[٤] يعتبط : يمت شابا . [٥] كان أبو النشناش من ذؤبان تميم وفتيانهم ، وكان يعترض القوافل بين طريق الحجاز والشام فيجتاحها . [٦] الصعلوك الفقير الذى لامال له . [٧] السوام : الماشية وسرح أرسلها إلى المرعى ، وأراحها أعادها ووجه مبسوط : أى واضح طلق ، ومعنى البيت إذا لم يكن للمرء مال يسرح ويراح ، وقوم من عشيرته يجلونه ويحتفون به ، فالموت أجدى عليه من بقائه فقيرا .
[٨] الدوية : الفلاة الواسعة .

ليدركَ ثارا أو ليكسب مغنما ألا إن هذا الدهر تترى عجائبه
فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى ولا كسواد الليل أخفق طالبه
فعش مُعْذِراً أو مت كريما فانني أرى الموت لا يُبقى على من يطالبه

٤ - الشعر السياسى

قال نصر بن سيار [1] يخاطب اليمانية والمضرية من العرب حين اتقدت نار العداوة فى خراسان والفرس لهم بمرصد :

أبلغ ربيعة فى مروٍ وإخوتهمْ فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ولينصِبوا الحرب إن القوم قدنصبوا حربا تحرَّقَ فى حافاتها الحطب
ما بالُكم تُلْقِحون الحرب بينكم كأن أهل الحجا عن رأيكم غُرُبُ
وتتركون عدوا قد أظلكمُ مما تأشب [2] لا دين ولا حسب
قِدْماً يدينون دينا ما سمعت به عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهم فان دينهم أن تُقْتَلَ العرب

وكتب نصر إلى هشام بن عبد الملك حين بدرت بوادر الثورة فى خراسان :

أرى خَلَلَ الرماد وميض جمر ويوشِك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكو وإن الحرب أوّلها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعرى أأيقاظ أميةُ أم نيام
فإن كانوا لحينهم نياماً فقل قوموا فقد حان القيام

[١] أمير خراسان من قبل بنى أمية [٢] تأشب : اختلط

فصِرى عن رحالك ، ثم قولى على الاسلام والعرب السلام

قال العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان يحذر قومه (بنى أمية) عواقب الخلاف وينذرهم وخامة الفتنة :

إنى أُعيذكُمُ بالله من فِتن مثل الجبال تَسامَى ثم تندفع
إن البرية قد ملَّت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحِمُنَّ ذئاب الناس أنفسكم إن الذئاب إذا ما أُلحمَت رتعوا
لا تَبقَرُنَّ بأيديكم بطونكمُ فَثَمَّ لا حسرةٌ تغنى ولا جزَعُ

٥ — فى الغزل والنسيب

قال قيس بن الملوّح العامرى — وهو مجنون ليلى — :

ألا يا حمَامَىْ بطن وَدَّانَ هِجْتُما علىَّ الهوى لما تغنيتما ليا
فأبكيتمانى وسط أهلى ولم أكن أبالى دموع العين لو كنت خاليا
ألا أيها الركب الْيمانون عرِّجوا علينا فقد أضحى هوانا يمانيا
نسائلْكُمُ هل سال نَعمانُ بعدنا وحُبَّ إلينا بطنُ نَعْمانَ واديا
أعُدّ الليالى ليلةً بعد ليلة وقد عشت دهرا لا أعُدُّ اللياليا
أرانى إذا صليتُ يممت نحوها بوجهى وإن كان المصلىَّ ورائيا
ومابِىَ إشْراكٌ ولكنَّ حبها كعود الشجا أعيا الطبيب المداويا
إذا ما طواكِ الدهر يا أم مالك فشأن المنايا القاضياتِ وشانيا
تمر الليالى والشهور وتنقضى وحبكِ ما يزداد إلا تماديا
خليلىّ إن دارت على أم مالك صروفُ الليالى فابغيا لىَ ناعيا

ولا تتركانى لاخيرٍ معجّل ولا لبقاءٍ تنظران بقائيا
خَليليّ لا والله لا أملك الذى قضى الله فى ليلي ولا ماقضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا
أمضروبة ليلي على أن أزورها ومتخذَ ذنبا لها أن ترانيا
ولو كان واشٍ باليمامة دارُهُ
وداري بأعلى حضر موتَ اهتدى ليا
وإنى لأخشى أن أموت فجاءة وفى النفس حاجات اليكِ كماهيا
وإنى ليَثْنيني لقاؤك كلما لقيتك يوما أن أبثك مابيا
وقالوا به داء عياء أصابه وقد علمت نفسى مكان دوائيا

وقال جميل بن عبد الله بن معمَر العُذْرى [١] :

وما زِلتمُ يابَثْنَ حتى لوَ انى من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا
إذا خدِرَت رجلي وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنتِ أنت دعائيا [٢]
وما زادنى النأى المفرق بعدكم سلوا ، ولا طول التلاقى تقاليا [٣]
ولا زادنى الواشون إلا صبابة ولا كثرة الناهين إلا تماديا
وأنت التى إن شئت كدرت عيشتى وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التى مامن صديق ولاعِدًى يرى نِضْوَ ما أبقيت إلا رثى ليا [٤]
ألم تعلمى ياعذبة الريق أننى أظَلُّ إذا لم ألق وجهك صاديا

[١] هو جميل بن عبد الله العذرى : شاعر فصيح ، يجمع بين جودة الشعر ، وجودة الرواية ، هوصاحب بثينة وقتيل حبها ويعده أهل زمنه أمام المحبين .
[٢] كان العرب اذا خدرت رجل أحدهم دعا لحبيبه أو على عدوّه .
[٣] التقالى : البغض [٤] النضو : المهزول .

لقد خفت أن ألقى المنية بغتة وفى النفس حاجات اليك كما هيا

موازنة :

كلا الشاعرين محبٌ ، وكلاهما قتله الحب ، وفى القصيدتين معان مشتركة ، وفى كلتيهما معان منفردة .

فمما اشتركا فيه قولهما فى الحمام ، فأما قيس ، فقال :

ألا يا حمامَىْ بطن وادن هجتما علىَّ الهوى لما تغنيتما ليا
فأبكيتمانى وسط أهلى ولم أكن أبالى دموع العين لو كنت خاليا

وقال جميل :

وما زلتم يا بَثْنَ حتى لو اننى من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا

فقيس هاجه الحمام فأبكاه ، وجميل لوشاء هاج الحمام واستبكاه ، وشتان بين من يبكى للحمام ، ومن إذا أراد أبكاه ، فالأول معنى دارج ، والثانى طريف مستحدث ، وهو إلى ذلك أسمح لفظا ، وأحلى إيقاعا .

وقال كلاهما فى ثبات الحب وتماديه ، فقال قيس :

تمرّ الليالى والشهور وتنقضى وحبك لا يزداد إلا تماديا

وقال جميل :

وما زادنى النأى المفرقُ بعدكم سلوا ولا طول التلاقى تقاليا
ولا زادنى الواشون إلا صبابة ولا كثرة الناهين إلا تماديا

فصاحب ليلى لا يزيده تطاول الزمن إلا تماديا فى الحب ، وصاحب بثينة لا يزيده البعد سلوا ، ولا الفراق بغضا ، وشتان بين من يزداد على

الأيام حباً ، ومن لا يزداد على الفراق سلوا ، فجميل لم يوفق توفيق صاحبه ، وان كان قد وفق فى البيت الثانى ، فجاء على سَنَنِه

أما الأسلوب ، فكلاهما قد بلغ فيه غاية الاحسان .

وقد توارد الرجلان على منهل واحد من هذين البيتين : فقال قيس

وإنى لأخشى أن أموت فجاءة   وفى النفس حاجات إليك كما هيا

وقال جميل

لقد خفت أن ألقى المنية بغتة   وفى النفس حاجات إليك كما هيا

وكلاهما نزع عن غرض واحد ، وانتهى إلى غاية واحدة ، وربما كان الشطر الأول من قول جميل أكثر انصقالا من قول صاحبه ،

ويعجبنى مما انفرد به قيس قوله :

وإنى ليثنينى لقاؤك كلما   لقيتك يوماً أن أبثك ما بيا

فقد سما بتصوير معناه سمواً لا يبلغه إلا قول جميل :

ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى   أظل إذا لم ألق وجهك صادياً

ومن أبدع ما انفرد به جميل ، قوله فى مناجاة صاحبته :

وأنت التى إن شئت كدّرت عيشتى   وإن شئت بعد الله أنعمت باليا

وأنت التى مامن صديق ولا عدى   يرى نضوَ ما أبقيت إلا رثى لياليا

على أن قوة الفن وروعته ، وسماحة الأسلوب وعذوبته ، أظهر فى قول جميل ، وإن امتاز قيس بالكشف عن فطرة المحب المضطرب النفس المحترق القلب من غير زخرف أو تمويه .

أقول : وتلك يائية ثالثة لشاعر ثالث قتله الحب ، كما قتل صاحبيه ،

وهو قيس بن ذَرِيح الكنانى ، وتلك القصيدة إن قصرت فى بعض أبياتها عن أختيها فقد توافت معهما فى أكثرها ، قال :

ألا حيِّ لُبنى اليوم إن كنت غاديا وألمم بها من قبل ألا تلاقيا
ألا ليت لبنى لم تكن لىَ خُلَّةً ولم ترنى لبنى ولم أدرِ ما هيا
سلى الناس هل خبَّرت سِرَّكِ منهمُ أخا ثقة أو ظاهر الغش باديا
خليلَىَّ مالى قد بكيتُ ولا أرى لُبَيْنَى من الهجران إلا كما هيا
ألا يا غُراب البين مالك كلما ذكرتُ لبينى طرت لى عن شماليا
أعندك علم الغيب أم أنت مُخبِرِى عن الحى إلا بالذى قد بدا ليا
جزعت عليها لو أرى لىَ مَجْزَعًا وأفنيت دمع العين لو كان فانيا
حياتَكَ لا تُغْلَبْ عليها ، فانه كفى بالذى تلقى لنفسك ناهيا
تمر الليالى والشهور ولا أرى ولوعى بها يزداد إلا تماديا
فما عن نوال من لبينى زيارتى ولا قلة الالمام إن كنت قاليا
ولكنها صدت وحمِّلت من هوى لها ما يهد الشامخات الرواسيا

ومن النسيب الصفىّ المختار : قول ابن الدُّمَيْنَة [١] :

قِفِى يَا أُمَيْمَ الْقَلْبَ نَقْضِ لُبَانَةً وَنَشْكُ الْهَوَى ثُمَّ افْعَلِى مَا بَدَا لكِ
سَلِى الْبَانَةَ الْغَنَّاءَ بِالْأَبْطَحِ الَّذِى بِهِ الْمَاءُ هَلْ حَيَّيْتُ أَطْلَالَ دَارِكِ
وَهَلْ قُمْتُ فِى أَظْلَالِهِنَّ عَشِيَّةً مُقَامَ أَخِى الْبَأْسَاءِ وَاُخْتَرْتُ ذَلِكِ

[١] هو عبد الله بن عبيد الله من بنى عامر بن تيم الله : شاعر غزل من شعراء الدولة الأموية

وهل كفكفت عيناى فى الدار عبرة
فرادى كنظم اللؤلؤ المتهالك

ليهنك إمساكي بكفى على الحشا ورقراق عينى خشية من زيالك
ابينى أفى يمنى يديك جعلتنى فأفرح أم صيرتنى فى شمالك
فيابنة الوادى أجيبى متيما أخا سقم أنشبته فى حبالك
تعاللت كى أشجى ومابك علة تريدين قتلى قد ظفرت بذلك

ومن النسيب الفطرى الندىّ قول قيس بن ذريح :

وإنى لأهوى النوم فى غير حينه لعل خيالا فى المنام يكون
تحدثنى الأحلام أنى أراكم فياليت أحلام المنام يقين
شهدت بأنى لم أحل عن مودة وأنى بكم لو تعلمين ضنين
وأن فؤادى لا يلين إلى هوى سواك وإن قالوا بلى سيلين

ومن النسيب الغنائى البديع قول الأحوص [1] :

وإنى لآتى البيت ما إن أحبه وأكثر هجر البيت وهو حبيب
وأغضى على أشياء منكم تسوءنى وأدعى إلى ما سركم فأجيب
ومازلت من ذكراك حتى كأننى أميم بأفناء الديار سليب [2]
أبثك ما ألقى وفى النفس حاجة لها بين جلدى والعظام دبيب
هبينى امرأ إما بريا ظلمته وإما مسيئا مذنبا فيتوب

[1] هو عبد الله بن محمد الأنصارى شاعر أموى غزل رقيق ، ولقب بالأحوص لحوص فى عينيه : أى ضيق فى مؤخرتيهما [2] الأميم المشجوج الرأس .

لك الله إني واصل ما وصلتِني ومثنٍ بما أوليتني ومثيب
وآخذ ما أعطيتِ عفوا وإنني لأزْوَر عما تكرهين هيوب
فلا تتركي نفسي شعاعا فإنها من الحزن قد كادت عليك تذوب

٦ – في المدح

قالَ الْكُمَيْتُ بْنُ زَيْدٍ الْأَسَدِيّ (١) يَمْدَحُ بَنِي هاشِم :

طَرِبْتُ وَمَا شَوْقاً إِلَى الْبِيضِ أَطْرَبُ وَلَا لَعِباً مِنِّي وَذُو الشَّوْقِ يَلْعَبُ
وَلَمْ تُلْهِنِي دَارٌ وَلَا رَسْمُ مَنْزِلٍ وَلَمْ يَتَطَرَّبْنِي بَنَانٌ مُخَضَّبُ
وَلَا أَنَا مِمَّنْ يَزْجُرُ الطَّيْرَ هَمُّهُ أَطَارَ غُرَابٌ أَمْ تَعَرَّضَ ثَعْلَبُ (٢)
وَلَا السَّانِحَاتُ الْبَارِحَاتُ عَشِيَّةً أَمَرَّ سَلِيمُ الْقَرْنِ أَمْ مَرَّ أَعْضَبُ (٣)
وَلَكِنْ إِلَى أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالتُّقَى وَخَيْرِ بَنِي حَوَّاءَ وَالْخَيْرُ يُطْلَبُ
إِلَى النَّفَرِ الْبِيضِ الَّذِينَ بِحُبِّهِمْ إِلَى اللهِ فِيمَا نَالَنِي أَتَقَرَّبُ
بَنِي هَاشِمٍ – رَهْطِ النَّبِيِّ – فَإِنَّنِي بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضَى مِرَاراً وَأَغْضَبُ
خَفَضْتُ لَهُمْ مِنِّي جَنَاحَيْ مَوَدَّةٍ إِلَى كَنَفٍ عِطْفَاهُ أَهْلٌ وَمَرْحَبُ

---

[١] هو إمام شعراء الشيعة . وقصائده الهاشميات من أعلام الشعر توفى فى أخريات العهد الأموى .

[٢] زجر الطير وغيرها : طرقها بحصاة حتى تتحرك ، فان ولتك ميامنها ، فهى سانحة ، وان ولتك مياسرها ، فهى بارحة ، ومما كان العرب يتشاءمون به تعرض الثعلب فى الطريق .

[٣] الأعضب المكسور أحد قرنيه ، والعرب يتشاءمون به .

وَكُنْتُ لَهُمْ مِنْ هؤُلاَءِ وَهؤُلاَ مِجَنًّا عَلَى أَنِّى أُذَمُّ وَأُقْصَبُ (١)
وَأُرْمَى وَأَرْمِى بِالْعَدَاوَةِ أَهْلَهَا وَإِنِّى لَأُوذَى فِيهِمُ وَأُؤَنَّبُ
فَمَا سَاءَنِى قَوْلُ امْرِئٍ ذِى عَدَاوَةٍ بِعَوْرَاءَ فِيهِمْ يَجْتَدِينِى فَيَجْدِبُ (٢)
فَقُلْ لِلَّذِى فِى ظِلِّ عَمْيَاءَ جَوْنَةٍ يَرَى الجَوْرَ عَدْلاً أَيْنَ لاَ أَيْنَ يَذْهَبُ
بِأَىِّ كِتَابٍ أَمْ بِأَيَّةِ سُنَّةٍ تَرَى حُبَّهُمْ عَاراً عَلَىَّ وَتَحْسَبُ
وَمَنْ غَيْرَهُمْ أَرْضَى لِنَفْسِىَ شِيعَةً وَمَنْ بَعْدَهُمْ لاَ مَنْ أُجِلُّ وَأَرْجَبُ (٣)
إِلَيْكُمْ ذَوِى آلِ النَّبِىِّ تَطَلَّعَتْ نَوَازِعُ مِنْ قَلْبِى ظِمَاءٌ وَأَلْبُبُ (٤)
وَإِنِّى عَنِ الأَمْرِ الَّذِى تَكْرَهُونَهُ بِقَوْلِى وَفِعْلِى مَا اسْتَطَعْتُ لَأَجْنَبُ
يُشِيرُونَ بِالْأَيْدِى إِلَىَّ وَقَوْلُهُمْ أَلاَ خَابَ هذَا وَالْمُشِيرُونَ أَخْيَبُ
فَطَائِفَةٌ قَدْ أَكْفَرَتْنِى بِحُبِّكُمْ وَطَائِفَةٌ قَالُوا مُسِيءٌ وَمُذْنِبُ
فَمَا سَاءَنِى تَكْفِيرُ هَاتِيكَ مِنْهُمُ وَلاَ عَيْبُ هَاتِيكَ الَّتِى هِىَ أَعْيَبُ

وَفِيهَا يَقُولُ يُنَاجِى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

فِدًى لَكَ مَوْرُوثًا أَبِى وَأَبُو أَبِى وَنَفْسِى ، وَنَفْسِى بَعْدُ بِالنَّاسِ أَطْيَبُ
بِكَ اجْتَمَعَتْ أَنْسَابُنَا بَعْدَ فُرْقَةٍ فَنَحْنُ بَنُو الإِسْلاَمِ نُدْعَى وَنُنْسَبُ
حَيَاتُكَ كَانَتْ مَجْدَنَا وَسَنَاءَنَا وَمَوْتُكَ جَدْعٌ لِلْعَرَانِينِ مُرْعِبُ (٥)

[١] يريد بهؤلاء وهؤلا : أعداء بنى هاشم من الخوارج و بنى أمية . والمجن الترس . وأقصب : اشتم .
[٢] العوراء الكلمة القبيحة . ويجدب : أى يعيب .
[٣] أرجب : أى أهاب . [٤] ألبب : جمع لب .
[٥] العرانين جمع عرنين : الأنف . والمراد بجدع العرنين الذله والمهانة .

وَأَنْتَ أَمِينُ اللّٰهِ فِى النَّاسِ كُلِّهِمْ عَلَيْنَا وَفِيمَا احْتَازَ شَرْقٌ وَمَغْرِبُ (١)

وَنَسْتَخْلِفُ الْأَمْوَاتَ بَعْدَكَ كُلَّهُمْ (٢)
وَنَعْتِبُ لَوْ كُنَّا عَلَى الْحَقِّ نُعْتَبُ

وَبُورِكْتَ مَوْلُوداً وَبُورِكْتَ نَاشِئاً
وَبُورِكْتَ عِنْدَ الشَّيْبِ إِذْ أَنْتَ أَشْيَبُ

وَبُورِكَ قَبْرٌ أَنْتَ فِيهِ وَبُورِكَتْ بِهِ وَلَهُ أَهْلٌ بِذٰلِكَ يَثْرِبُ
لَقَدْ غَيَّبُوا بِرًّا وَصِدْقاً وَنَائِلا عَشِيَّةَ وَارَاكَ الصَّفِيحُ الْمُنَصَّبُ

وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز :

إِنَّا لَنَرْجُو إِذَا مَا الْغَيْثُ أَخْلَفَنَا مِنَ الْخَلِيفَةِ مَا نَرْجُو مِنَ الْمَطَرِ (٣)
يَا رُبَّ سَجْلٍ مُغِيثٍ قَدْ نَفَحْتَ بِهِ مِنْ نَائِلٍ غَيْرِ مَنْزُوحٍ وَلَا كَدِرِ (٤)
أَأَذْكُرُ الْجَهْدَ وَالْبَلْوَى الَّتِى نَزَلَتْ أَمْ قَدْ كَفَانِى الَّذِى بُلِّغْتَ مِنْ خَبَرِى

مَا زِلْتُ بَعْدَكَ فِى هَمٍّ يُؤَرِّقُنِى
قَدْ طَالَ فِى الْحَيِّ إِصْعَادِى وَمُنْحَدَرِى (٥)

لَا يَنْفَعُ الْحَاضِرُ الْمَجْهُودُ بَادِيَنَا وَلَا يَعُودُ لَنَا بَادٍ عَلَى حَضَرِ (٦)

[١] وفيما احتاز شرق ومغرب : أى فيما ضمه شرق وغرب .

[٢] نستخلف الأموات : أى نلتمس منهم خلفا .

[٣] أخلفنا لم يأتنا كعادته ، يريد إذا أجدبنا رجونا خيرك .

[٤] سجل : دلو عظيمة ممتلئة . مغيث : منقذ . من مجاعة : قحط . نائل : عطاء . منزوح : مستنفد . [٥] اصعادى : أصعد فى الأرض مضى وسار .

[٦] الحاضر : المقيم بالحضر ، وضدّه البادى وهو المقيم بالبادية . المجهود الذى ناله جهد ومشقة . يعود : يرجع بخير . عاد بمعروفه : إذا أفضل والاسم العائدة .

كَمْ بِالمَوَاسِمِ مِنْ شعثاء أَرْمَلَةٍ   وَمِنْ يَتِيمٍ ضَعِيفِ الصَّوْتِ وَالنَّظَرِ (١)

يَدْعُوكَ دَعْوَةَ مَلْهُوفٍ كَأَنَّ بِهِ   مَسًّا مِنَ الجِنِّ أَوْ خَبْلاً مِنَ النُّشَرِ (٢)

مِمَّنْ يَعُدُّكَ تَكْفِي فَقْدَ وَالِدِهِ   كَالفَرْخِ فِي العُشِّ لَمْ يَدْرُجْ وَلَمْ يَطِرِ (٣)

يَرْجُوكَ مِثْلَ رَجَاءِ الغَيْثِ تَجْبُرُهُمْ   بُورِكْتَ جَابِرَ عَظْمٍ هِيضَ مُنْكَسِرِ (٤)

فَإِنْ تَدَعْهُمْ فَمَنْ يَرْجُونَ بَعْدَكُمُ   أَوْ تُنْجِ مِنْهَا فَقَدْ أَنْجَيْتَ مِنْ ضَرَرِ

خَلِيفَةَ اللهِ مَا ذَا تَأْمُرَنَّ بِنَا   لَسْنَا إِلَيْكُمْ وَلَا فِي دَارِ مُنْتَظَرِ

أَنْتَ المُبَارَكُ وَالمَهْدِيُّ سِيرَتُهُ   تَعْصِي الهَوَى وَتَقُومُ اللَّيْلَ بِالسُّوَرِ

أَصْبَحْتَ لِلْمِنْبَرِ المَعْمُورِ مَجْلِسَهُ   زَيْنًا وَزَيْنَ قِبَابِ المُلْكِ وَالحُجَرِ

نَالَ الخِلَافَةَ إِذْ كَانَتْ لَهُ قَدَراً   كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرِ (٥)

فَلَنْ تَزَالَ لِهٰذَا الدِّينِ مَا عَمَرُوا   مِنْكُمْ عِمَارَةُ مُلْكٍ وَاضِحَ الغُرَرِ (٦)

---

[١] المواسم : جمع موسم وهو مجتمع الناس . شعثاء : مغبرة الرأس . أرملة : لازوج لها ، يقال للمرأة أرملة اذا مات زوجها

[٢] ملهوف : مظلوم مستغيث . المس من الجن : الصرع ، يقال مسّ بالبناء للمجهول، فهو ممسوس . خبلا : الخبل بالسكون الجنون وشبهه كالهوج والبله النشر : جمع نشرة وهى الرقية .

[٣] و [٤] يدرج . درج كقعد مشى قليلا . تجبرهم : جبر العظم أصلحه . هيض : كسر بعد جبر .

[٥] قدرا : مقدرة . على قدر على موعد قدّره الله له .

[٦] ما عمروا : بقوا . الغرر : جمع غرّة ، وهى بياض فى جبهة الفرس . يقال عمر الله منزلك وأعمره : جعله أهلا بسكانه يدعوهم بدوام الملك وعزة الدين بهم

مَا صَاحَ مِنْ حَيَّةٍ يَنْمِي إِلَى جَبَلٍ إِلَّا صَدَعْتَ صَفَاةَ الحَيَّةِ الذَّكَرِ (١)

أَخْوَالُكَ الشُّمُّ مِنْ قَيْسٍ إِذَا فَزِعُوا لَا يَعْصِمُونَ حِذَارَ المَوْتِ بِالعُذُرِ (٢)

لِتَنْعَشِ اليَوْمَ رِيشِي ثُمَّ تُنْهِضُنِي وَتُنْزِلَ اليُسْرَ مِنِّي مَوْضِعَ العُسُرِ (٣)

فَمَا وَجَدْتُ لَكُمْ نِدًّا يُعَادِلُكُمْ وَمَا عَلِمْتُ لَكُمْ فِي النَّاسِ مِنْ خَطَرِ (٤)

٧ — في الرثاء

قال مالك بن الرّيب المازني (٥) : يرثى نفسه ويصف قبره ، وكان خرج مع سعيد بن عفان أخي عثمان بن عفان لما ولى خرسان ، فلما كان ببعض الطريق أراد أن يلبس خفه فلدغته أفعى . فلما أحس بالموت أنشأ يقول :

دَعَانِي الهَوَى مِنْ أَهْلِ وُدِّي وَصُحْبَتِي بِذِي الشَّيِّطَيْنِ فَالْتَفَتُّ وَرَائِيَا

---

[١] حية : رجل شجاع شديد ، يقال فلان حية الوادى ، وحية الأرض إذا كان نهاية فى الدهاء والخبث ، كما فى اللسان ، وفلان حية ذكر : أى شجاع شديد صدعت . كسرت . صفاة : صخرة صلبة . والبيت كله كناية عن القوّة وشدّة البأس .

[٢] الشم : جمع أشم كناية عن العزة . فزعوا : أغاثوا المستنصربهم. لايعصمون يقال عصم بالشىء لاذ به . حذار الموت : خشيته . بالعذر : جمع عذار وهو من اللجام ماسال على خد الفرس . يريد انهم شجعان لايهابون الموت فى الحرب ولا يمسكون بأعنة الخيل فرقا .

[٣] لتنعش . يقال نعش فلانا كمنع جبره بعد فقره . ريشى : معاشى

[٤] ندا : مثيلا . خطر : مماثل فى العلو والمنزلة .

[٥] شاعر فاتك كان يقطع الطريق ، وكان من أحسن الناس وجها وأرقهم حديثا ، فمرّ به سعيد فى طريقه إلى خراسان . وتألفه واتخذه فى خاصته .

فَمَا رَاعَنِي إِلَّا الْأَسَاوِدُ عَبْرَتِي تَقَنَّعْتُ مِنْهَا إِذْ أَلَمَّ رِدَائِيَا
أَلَمْ تَرَنِي بِعْتُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَفَّانَ غَازِيَا
فَلِلَّهِ دَرِّي حِينَ أَتْرُكُ طَائِعاً بَنِيَّ بِأَعْلَى الرَّقْمَتَيْنِ وَمَالِيَا
وَدَرُّ الْكَبِيرَيْنِ اللَّذَيْنِ كِلَاهُمَا عَلَيَّ شَفِيقٍ نَاصِحٍ قَدْ نَهَانِيَا [1]
وَدَرُّ الظِّبَاءِ السَّانِحَاتِ عَشِيَّةً يُخَبِّرْنَ أَنِّي هَالِكٌ مَنْ أَمَامِيَا
تَقُولُ ابْنَتِي لَمَّا رَأَتْ وَشْكَ رِحْلَتِي سِفَارُكَ هٰذَا تَارِكِي لَا أَبَالِيَا
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ بَكَتْ أُمُّ مَالِكٍ كَمَا كُنْتُ لَوْ غَادَى نَعِيُّكِ بَاكِيَا
إِذَا مِتُّ فَاعْتَادِي الْقُبُورَ وَسَلِّمِي عَلَيْهِنَّ أُسْقِينَ السَّحَابَ الْغَوَادِيَا
تَرَى جَدَثاً قَدْ جَرَّتِ الرِّيحُ فَوْقَهُ تُرَاباً كَلَوْنِ الْقَسْطَلَانِيِّ هَابِيَا [2]
فَيَا صَاحِبَيْ رَحْلِي دَنَا الْمَوْتُ فَاحْفِرَا بِرَابِيَةٍ إِنِّي مُقِيمٌ لَيَالِيَا
وَخُطَّا بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ مَضْجَعِي وَرُدَّا عَلَى عَيْنَيَّ فَضْلَ رِدَائِيَا
وَلَا تَحْسُدَانِي بَارَكَ اللهُ فِيكُمَا مِنَ الْأَرْضِ ذَاتِ الْعَرْضِ أَنْ تُوسِعَا لِيَا
خُذَانِي فَجُرَّانِي بِبُرْدِي إِلَيْكُمَا فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ صَعْباً قِيَادِيَا
تَفَقَّدْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ سِوَى السَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ بَاكِيَا
وَأَدْهَمَ غِرْبِيبٍ يَجُرُّ لِجَامَهُ إِلَى الْمَاءِ لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الْمَوْتُ سَاقِيَا [3]
وَبِالرَّمْلِ لَوْ يَعْلَمْنَ عِلْمِي نِسْوَةٌ بَكَيْنَ وَفَدَّيْنَ الطَّبِيبَ الْمُدَاوِيَا

[١] يريد بالكبيرين أبويه .
[٢] القسطلانى نسبة إلى القسطلان ، وهو الغبار الساطع . والهابى التراب الدقيق
[٣] الأدهم الأبيض أو الأسود ، والغربيب الشديد السواد .

عَجُوزِى وَأُخْتَاىَ اللَّتَانِ أُصِيبتَا بِمَوْتِى وَبِنْتٌ لِى تُهِيجُ البَوَاكِيَا
لَعَمْرِى لَئِنْ غَالَتْ خُرَاسَانُ هَامَتِى لَقَدْ كُنْتُ عَنْ بَابَىْ خُرَاسَانَ نَائِيَا
تَحَمَّلَ أَصْحَابِى عِشَاءً وَغَادَرُوا أَخَائِفَةٍ فِى عَرْصَةِ الدَّارِ ثَاوِيَا
يَقُولُونَ لَا تَبْعَدْ ، وَهُمْ يَدْفِنُونَنِى وَأَيْنَ مَكَانُ البُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا !

وقال عبد الله بن عمر الأموى [1] : يرثى بنى أمية حين نكبهم العباسيون :

تَقُولُ أُمَامَةُ لَمَّا رَأَتْ نُشُوزِى عَنِ المَضْجَعِ الأَنْفَسِ
وَقِلَّةَ نَوْمِى عَلَى مَضْجَعِى لَدَى هَجْعَةِ الأَعْيُنِ النُّعَّسِ
أَبِى مَا عَرَاكَ ؟ فَقُلْتُ: الهُمُومُ عَرَوْنَ أَبَاكِ فَلَا تُبْلِسِى [2]
عَرَوْنَ أَبَاكِ فَحَبَّسْنَهُ مِنَ الذُّلِّ فِى شَرِّ مَا مَحْبَسِ
لِفَقْدِ العَشِيرَةِ إِذْ نَالَهَا سِهَامٌ مِنَ الحَرْبِ لَمْ تَبْأَسِ
رَمَتْهَا المَنُونُ بِلَا أَنْصُلٍ وَلَا طَائِشَاتٍ وَلَا نُكَّسِ [3]
بِأَسْهُمِهَا الخَالِسَاتِ النُّفُوسِ مَتَى مَا اقْتَضَتْ مُهْجَةً تَخْنِسِ [4]

[١] شاعر مجيد من شعراء قريش أدرك الدولة العباسية ويكنى أباعدى و يلقب بالعبلى ، وكان رغم انتسابه إلى بنى أمية يميل إلى بنى هاشم

[٢] أبلس الرجل : يئس من رحمة الله .

[٣] نصل السهم : حديدها . ونكس : جمع نكس - بكسر النون وسكون الكاف - أضعف السهام ، ومعنى البيتين أن المنون رمتها بسهام لانصال لها ولا هى طائشة ولاضعيفة .

[٤] خلس النفس : أخذها من حيث لاتتق . وخنس: اختفى وانقبض .

فصرّعاهم في نواحي البلا ... د تُلقى بأرضٍ ولم ترمسِ (١)
كريمٌ أُصيب وأثوابُه ... من العار والذام لم تدنسِ (٢)
وآخرُ قد طار خوفَ الردى ... وكان الهمامَ فلم يخنسِ
فكم غادروا من بواكي العيو ... نِ مرضى ومن صبيةٍ بؤّسِ
إذا ما ذكرتُهم لم تنم ... لِحَرِّ الهموم ولم تجلسِ
يُرجّعن مثل بُكاء الحما ... مِ في مأتمٍ قلقِ المجلسِ
فذاك الذي غالني فاعلمي ... ولا تسأليني فتستنحسي
أفاض المدامعَ قتلى كُدا ... وقتلى بِبكّة لم ترمسِ (٣)
وبالزابيينِ نفوسٌ ثوت ... وقتلى بنهرِ أبي قرطسِ
أولئك قومٌ تداعت بهم ... نوائبُ من زمنٍ متعسِ
أذلّت قيادي لمن رامني ... وألزقتِ الرَّغمَ بالمعطسِ
فما أنسَ لا أنسَ قتلاهمُ ... ولا عاش بعدهمُ من نسي

وقال يهس بن عامر (٤) يرثى امرأة من قومه تدعى صفراء :

هل بالديارِ التي بالقاعِ من أحدٍ ... باقٍ فيسمعَ صوتَ المُدلجِ الساري
تلك المنازلُ من صفراءَ ليس بها ... نارٌ تُضيء ولا أصواتُ سُمّارِ

[١] ترمس : تقبر . [٢] الذام : الذم .
[٣] كدا الثنية السفلى مما يلي باب العمرة بمكة
[٤] هو بيهس بن صهيب بن عامر الجرمي : شاعر فارس بطل من شعراء الدولة الأموية ، وصفراء : امرأة من قوم كان يهواها ، ثم طلبها فرده أبوها لفقره وزوّجها من غيره ، وقيل إنه تزوجها . ثم طلقها فتزوّجت غيره .

طَالَ الْوُقُوفُ بِهَا وَالْعَيْنُ تَسْبِقُنِي فَوْقَ الرِّدَاءِ بَوَادِي دَمْعِهَا الْجَارِي
إِنْ أُصْبِحِ الْيَوْمَ لَا أَهْلٌ ذَوُو لَطَفٍ أَلْهُو لَدَيْهِمْ وَلَا صَفْرَاءُ فِي الدَّارِ
أَرْعَى بِعَيْنِي نُجُومَ اللَّيْلِ مُرْتَقِبًا يَا طُولَ ذَلِكَ مِنْ هَمٍّ وَإِسْهَارِ
فَقَدْ يَكُونُ لِيَ الْأَهْلُ الْكِرَامُ وَقَدْ أَلْهُو بِصَفْرَاءَ ذَاتِ الْمَنْظَرِ الْوَارِي
مِنَ الْمَرَاجِدِ أَعْرَاقًا إِذَا نُسِبَتْ لَا تَحْرِمُ الْمَالَ عَنْ ضَيْفٍ وَعَنْ جَارِ
لَمْ تَلْقَ بُؤْسًا وَلَمْ يَضْرُرْ بِهَا عَوَزٌ وَلَمْ تُرَجِّفْ مَعَ الصَّالِي إِلَى النَّارِ (١)
كَذَلِكَ الدَّهْرُ إِنَّ الدَّهْرَ ذُو غِيَرٍ عَلَى الْأَنَامِ وَذُو نَقْضٍ وَإِمْرَارِ
قَدْ كَانَ يَعْتَادُنِي مِنْ ذِكْرِهَا جَزَعٌ لَوْلَا الْحَيَاءُ وَلَوْلَا رَهْبَةُ الْعَارِ
سَقَى الْإِلَهُ قُبُورًا فِي بَنِي أَسَدٍ حَوْلَ الرَّبِيئَةِ غَوْثًا صَوْبَ مِدْرَارِ (٢)
مَنِ الَّذِي بَعْدَكُمْ أَرْضَى بِهِ بَدَلًا أَوْ مَنْ أُحَدِّثُ حَاجَاتِي وَأَسْرَارِي

وَقَالَ خَلَفُ بْنُ خَلِيفَةَ يَرْثِي صَاحِبًا لَهُ:

أُعَاتِبُ نَفْسِي أَنْ تَبَسَّمْتُ خَالِيًا وَقَدْ يَضْحَكُ الْمَوْتُورُ وَهُوَ حَزِينُ
وَبِالدَّيْرِ أَشْجَانِي وَكَمْ مِنْ شَجٍ لَهُ دُوَيْنَ الْمُصَلَّى بِالْبَقِيعِ شُجُونُ
رُبًا حَوْلَهَا أَمْثَالُهَا إِنْ أَتَيْتَهَا تُرِينَكَ أَشْجَانًا وَهُنَّ سُكُونُ
كَفَى الْهَجْرَ أَنَّا لَمْ يَضِحْ لَكَ أَمْرُنَا وَلَمْ يَأْتِنَا عَمَّا لَدَيْكَ يَقِينُ

* * *

تبارت الخنساء وهند بنت عتبة فى أيهما أعظم مصابا ، وقد مات عن الخنساء أبوها وأخواها ، وقتل عن هند يوم بدر أبوها وعمها وأخوها ،

[١] ترجف : أى تسير مرتجفة إلى نار ذوى اليسار لتطعم من طعامهم .

[٢] الربيئة : المكان المرتفع .

فقالت الخنساء :

أُبَكِّى أَبِى عَمْراً بِعَيْنٍ غَزِيرَةٍ قَلِيلٍ إِذَا نَامَ الْخَلِىُّ هُجُودُهَا
وَصِنْوَىَّ لاَ أَنْسَى مُعَاوِيَةَ الَّذِى لَهُ مِنْ سَرَاةِ الحَرَّتَيْنِ وُفُودُهَا
وَصَخْراً، وَمَنْ ذَا مِثْلُ صَخْرٍ إِذَا غَدَا بِسَلْهَبَةِ الْأَبْطَالِ قُبًّا يَقُودُهَا(١)
فَذَلِكَ يَا هِنْدُ الرَّزِيَّةُ فَاعْلَمِى وَنِيرَانُ حَرْبٍ حِينَ شَبَّ وَقُودُهَا

فَقَالَتْ هِنْدُ تُجِيبُهَا :

أُبَكِّى عَمِيدَ الْأَبْطَحَيْنِ كِلَيْهِمَا وَحَامِيهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ يُرِيدُهَا
أَبِى عُتْبَةُ الْخَيْرَاتِ وَيْحَكِ فَاعْلَمِى وَشَيْبَةُ وَالحَامِى الذِّمَارِ وَلِيدُهَا
أُولَئِكَ آلُ المَجْدِ مِنْ آلِ غَالِبٍ وَفِى العِزِّ مِنْهَا حِينَ يَنْمِى عَدِيدُهَا

ثُمَّ قَالَتْ :

مَنْ حَسَّ لِى الأَخَوَيْنِ كَالْـ غُصْنَيْنِ أَوْ مَنْ رَاهُمَا
قَرْمَانِ لاَ يَتَظَالَمَا نِ وَلاَ يُرَامُ حِمَاهُمَا
وَيْلِى عَلَى أَبَوَىَّ وَالْـ قَـبْرِ الَّذِى وَارَاهُمَا
لاَ مِثْلُ كَهْلِى فِى الْـكُهُو لِ وَلاَ فَتًى كَفَتَاهُمَا
أَسَدَانِ لاَ يَتَذَلَّلاَ نِ وَلاَ يُرَامُ حِمَاهُمَا
رُمْحَيْنِ خَطِّيَّيْنِ فِى كَبِدِ السَّمَاءِ تَرَاهُمَا
مَا خَلَّفَا إِذْ وَدَّعَا فِى سُؤْدَدٍ شَرْوَاهُمَا(٢)
سَادَا بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ عَفْواً بِفَيْضِ نَدَاهُمَا

[١] السلهبة : الخيل الطويلة العظيمة، والقب: الضامرة. [٢] شرواهما : مثلهما.

موازنة :

كانت النساء تتعاظم بمصائبها ليقول العرب انها أفدح النساء مصاباً ، وكذلك فعلت الخنساء وهند . فأما الخنساء فقد بكت أباها ووالت البكاء عليه ، وبكت أخويها ، ووصفت أولهما بمهبط الوفود ، ووصفت ثانيهما بمنتهى الشجاعة . ووصفت هند أباها بزعامة الأبطحين وحمايتهما ، ففضلت فى وصفه الخنساء ، وأجملت القول فى عمها وأخيها ، فجاءت فى ذلك دون صاحبتها ؛ ثم أعقبت هذه الأبيات بهذه المرثية الغنائية الفريدة ، وفيها تجد اللفظ السهل ، والايقاع العذب ، والرقة الناعمة ؛ وفيها وصفت فأحسنت الوصف ، وبكت فأمعنت فى البكاء . لذلك شهد لها الشاهدون أنها أوجع حزناً وأفدح مصاباً من الخنساء.

ومن الرثاء النِّسْوى الذى ذابت فيه حشاشة المرأة واحترق قلبها قول أم حكيم زوج عبيدالله بن العباس أمير اليمن من قِبَل على بن أبى طالب عليه السلام ، وكان معاوية قد أرسل قائده الطاغية بُسْرَ بن أرطاة إلى اليمن ، ففرّ من وجهه عبيدُ الله ، فعمد بسر إلى طفليه الصغيرين فذبحهما بمدية فقالت ترثيهما :

يَا مَنْ أَحَسَّ بِإِبْنَيَّ اللَّذَيْنِ هُمَا كَالدُّرَّتَيْنِ تَشَظَّى عَنْهُمَا الصَّدَفُ
يَا مَنْ أَحَسَّ بِإِبْنَيَّ اللَّذَيْنِ هُمَا سَمْعِى وَقَلْبِى ، فَقَلْبِى اليَوْمَ مُزْدَهَفُ
يَا مَنْ أَحَسَّ بِإِبْنِيَّ اللَّذَيْنِ هُمَا مُخُّ العِظَامِ ، فَمُخِّى اليَوْمَ مُخْتَطَفُ
نُبِّئْتُ بُسْراً - وَمَا صَدَّقْتُ مَا زَعَمُوا
مِنْ قَوْلِهِمْ وَمِنَ الإِفْكِ الَّذِى اقْتَرَفُوا

أَنْحَى عَلَى وَدَجَيْ ٱبْنَيَّ مُرْهَفَةً مَشْحُوذَةً، وَكَذَاكَ الْإِثْمُ يُقْتَرَفُ
حَتَّى لَقِيتُ رِجَالاً مِنْ أُرُومَتِهِ شُمَّ الْأُنُوفِ لَهُمْ فِي قَوْمِهِمْ شَرَفُ
فَالْآنَ أَلْعَنُ بُسْراً حَقَّ لَعْنَتِهِ هٰذَا لَعَمْرُ أَبِي بُسْرٍ هُوَ السَّرَفُ
مَنْ دَلَّ وَالِهَةً حَيْرَى مُدَلَّهَةً عَلَى صَبِيَّيْنِ حَلَّا، إِذْ غَدَا السَّلَفُ

وَقَالَتْ فِيهِمَا وَهُوَ مِمَّا يُتَغَنَّى بِهِ :

أَلَا يَا مَنْ رَأَى الْأَخَوَيْـ ـنِ أُمُّهُمَا هِيَ الثَّكْلَى
تُسَائِلُ: مَنْ رَأَى ٱبْنَيْهَا.؟. وَتَسْتَسْقِي فَمَا تُسْقَى
فَلَمَّا ٱسْتَيْأَسَتْ رَجَعَتْ بِعَبْرَةِ وَالِهٍ حَرَّى
تُتَابِعُ بَيْنَ وَلْوَلَةٍ وَبَيْنَ مَدَامِعٍ تَتْرَى

في الهجاء

قَالَ ٱبْنُ مُفَرَّغٍ الْحِمْيَرِيُّ (١) يَهْجُو عُبَيْدَ اللهِ بْنَ زِيَادٍ قَاتِلَ الْحُسَيْنِ ٱبْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَيَشْمَتُ بِهِ بَعْدَ قَتْلِهِ :

إِنَّ الَّذِي عَاشَ خَتَّاراً بِذِمَّتِهِ وَمَاتَ عَبْداً، قَتِيلُ اللهِ بِالزَّابِ (٢)
الْعَبْدُ لِلْعَبْدِ، لَا أَصْلٌ وَلَا شَرَفٌ أَلْوَتْ بِهِ ذَاتُ أَظْفَارٍ وَأَنْيَابِ (٣)
إِنَّ الْمَنَايَا إِذَا مَا زُرْنَ طَاغِيَةً هَتَكْنَ عَنْهُ سُتُوراً بَيْنَ أَبْوَابِ

[١] شاعر أموى : مصقول الشعر إلا أن أجود شعره فى الهجاء، وأشدّ هجائه فى زياد بن أبى سفيان وابنه عبيد الله . [٢] الزاب : نهر بالعراق .
[٣] استولد زياد بن أبى سفيان جارية حبشية تدعى مرجانة فولدت له عبيدالله وأتى أبو سفيان بزياد من امرأة بغى تدعى سمية ونسبته إليه مشكوك فيها . وإلى هذا وذلك يشير ابن مفرغ بقوله : العبد للعبد . وألوت به : أى مالت به .

هَلاَّ جُمُوعَ نِزَارٍ إِذْ لَقِيتَهُمُ
كُنْتَ امْرَأً مِنْ نِزَارٍ غَيْرَ مُرْتَابِ ! (١)

لاَ أَنْتَ زَاحَمْتَ عَنْ مُلْكٍ فَتَمْنَعَهُ وَلاَ مَدَدْتَ إِلَى قَوْمٍ بِأَسْبَابِ
مَا شُقَّ جَيْبٌ وَلاَ نَاحَتْكَ نَائِحَةٌ وَلاَ بَكَتْكَ جِيَادٌ عِنْدَ أَسْلاَبِ

وَقَالَ رَبِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ (٢) يَهْجُو يَزِيدَ بْنَ أُسَيْدٍ السُّلَمِيَّ وَيَمْدَحُ يَزِيدَ بْنَ حَاتِمٍ الْمُهَلَّبِيَّ الْأَزْدِيَّ :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَالْأَغَرِّ ابْنِ حَاتِمِ
فَهَمُّ الْفَتَى الْأَزْدِيِّ إِتْلاَفُ مَالِهِ وَهَمُّ الْفَتَى الْقَيْسِيِّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
فَلاَ يَحْسَبِ التَّمْتَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ وَلٰكِنَّنِي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ (٣)
فَيَا ابْنَ أُسَيْدٍ لاَ تُسَامِ ابْنَ حَاتِمٍ فَتَقْرَعَ إِنْ سَامَيْتَهُ سِنَّ نَادِمِ
هُوَ الْبَحْرُ إِنْ كَلَّفْتَ نَفْسَكَ خَوْضَهُ
تَهَالَكْتَ فِي مَوْجٍ لَهُ مُتَلاَطِمِ

---

[١] جموع نزار : هى التى قاتلت عبيد الله انتقاما للحسين ، فلما قاتلها لم يدفع عن نفسه كما تدفع نزار عن نفسها : بل فرّ حتى قتل .

[٢] شاعر مجيد من مخضرمى الدولتين : الأموية والعباسية ، وهو من أرقّ الناس غزلا وأحسنهم مدحا : ومن أحسن مدائحه قوله فى العباس بن محمد :

ما إن أعدمن المكارم خصلة الا وجدتك عمها أو خالها
واذا الملوك تسايروا فى بلدة كانوا كواكبها وكنت هلالها
ان المكارم لم تزل معقولة حتى حللت براحتيك عقالها

[٣] التمتمة : ردّ الكلام الى التاء والميم .

وَقالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيّ (١) فى ابْنِ عَمٍّ لَهُ لا خَيْرَ فِيهِ — وَهُوَ مِمَّا يُتَغَنَّى بِهِ :

بُلِيتُ بِصَاحِبٍ إِنْ أَدْنُ شِبْراً يَزِدْنِي فى مُبَاعَدَةٍ ذِرَاعَا
وَإِنْ أَمْدُدْ لَهُ فى الْوَصْلِ ذَرْعِي يَزِدْنِي فَوْقَ مَدِّ الذَّرْعِ بَاعَا
أَبَتْ نَفْسِي لَهُ إِلَّا اتِّبَاعًا وَتَأْبَى نَفْسُهُ إِلَّا امْتِنَاعَا
كِلَانَا جَاهِدٌ ، أَدْنُو وَيَنْأَى فَذَلِكَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا اسْتَطَاعَا

وَقالَ يَهْجُو امْرَأَةً تَزَوَّجَهَا فَتَجَنَّتْ عَلَيْهِ (٢) :

تُعَاتِبُنِي عِرْسِي عَلَى أَنْ أُطِيعَهَا لَقَدْ كَذَبَتْهَا نَفْسُهَا مَا تَمَنَّتِ
وَظَنَّتْ بِأَنِّي كُلَّ مَا رَضِيَتْ بِهِ
رَضِيتُ بِهِ ، يَا جَهْلَهَا كَيْفَ ظَنَّتِ !
وَصَاحَبْتُهَا ، مَا لَوْ صَحِبْتُ بِمِثْلِهِ عَلَى ذُعْرِهَا أُرْوِيَّةً لَاطْمَأَنَّتِ (٣)
وَقَدْ غَرَّهَا مِنِّي عَلَى الشَّيْبِ وَالْبِلَى
جُنُونِي بِهَا ، جُنَّتْ حِيَالِي وَحُنَّتِ (٤)

[١] من شعراء التابعين وفقائهم وعلمائهم ، وقيل إنه أدرك النبى صلى الله عليه وسلم وشهد بدرا ، وهو من وجوه الشيعة وأئمتهم .

[٢] كان لأبى الأسود امرأتان إحداهما عجوز طيبة العشرة ، حسنة التدبير، تدعى أمّ عوف ، وهى التى يقول فيها :

أبى القلب إلا أمّ عوف وحبها عجوزا ومن يعشق عجوزا يفند
كبرد يمان قد تقادم عهده ورقعته ماشئت فى العين واليد

والثانية شابة مليحة الوجه ولكنها متجنية متمرّدة : وهى فاطمة بنت دعمى وهى التى يهجوها بهذا الهجاء :

[٣] الأروية : أنثى الوعل . [٤] حنت : كلمة تقال أتباعا لجنت وتأكيدا لها .

تَشَكَّى إِلَى جَارَاتِهَا وَبَنَاتِهَا   إِذَا لَمْ تجدْ ذنباً علَيْنَا تجنّتِ
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنِّى إِذَا خِفْتُ جَفْوَةً   بِمَنْزِلَةٍ أَبْعَدْتُ عَنْهَا مَطِيَّتِى
وَأَنِّى إِذَا شَقَّتْ عَلَىَّ حَلِيلَتِى   ذَهِلْتُ وَلَمْ أَحْنِنْ إِذَا هِىَ حَنَّتِ[1]

وقَالَ فِيهَا عِنْدَ طَلَاقِهَا :

أُرِيتُ امْرَأً كُنْتُ لَمْ أَبْلُهُ   أَتَانِى فَقَالَ اتَّخِذْنِى خَلِيلَا
فَخَالَلْتُهُ ثُمَّ أَكْرَمْتُهُ   فَلَمْ أَسْتَفِدْ مِنْ لَدُنْهُ فَتِيلَا
وَأَلْفَيْتُهُ حِينَ جَرَّبْتُهُ   كَذُوبَ الْحَدِيثِ سَرُوقاً بَخِيلَا
فَذَكَّرْتُهُ ثُمَّ عَاتَبْتُهُ   عِتَاباً رَقِيقاً وَقَوْلاً جَمِيلَا
فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ   وَلَا ذَاكِرِ اللهِ إِلَّا قَلِيلَا
أَلَسْتُ حَقِيقاً بِتَوْدِيعِهِ   وَإِتْبَاعِ ذَلِكَ صَرْماً طَوِيلَا ؟

وكان حارثة بن بدر الغدانى[2] مستهترا مدمنا على الشراب ، وكان أهل العراق يخوضون فيه لذلك ، فلما ولاه عبيد الله بن زياد ولاية (سُرَّق) - من العراق - خرجت جماعات العراق فى ركابه ، فكتب إليه أنس بن أبى إياس[3]

أَحَارِ بْنَ بَدْرٍ قَدْ وَلِيتَ وِلَايَةً   فَكُنْ جُرَذاً فِيهَا تَخُونُ وَتَسْرِقُ

[1] ذهل عن صاحبه تركه أو نسيه .

[2] فارس من فرسان تميم ، وشاعر من شعرائها ، وخطيب من خطبائها ، وكان على فضله مدمنا على الشراب ، وقد احتمل له هـذه الخلة زياد بن أبى سفيان وقرّبه منه لأدبه وفضله ، وله فى الخمر شعر كثير .

[3] شاعر من أشراف بنى الديل بن بكر ، وأبوه شاعر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وَلاَ تَحْقِرَنْ يَا حَارِ شَيْئاً تَخُونُهُ ... فَحَظُّكَ مِنْ مُلْكِ الْعِرَاقَيْنِ سُرَّقُ
وَبَاهِ تَمِيماً بِالْغِنَى إِنَّ لِلْغِنَى ... لِسَاناً بِهِ الْمَرْءُ الْهَيُوبَةُ يَنْطِقُ
فَإِنَّ جَمِيعَ النَّاسِ إِمَّا مُكَذِّبٌ ... يَقُولُ بِمَا يَهْوَى وَإِمَّا مُصَدِّقُ
يَقُولُونَ أَقْوَالاً وَلاَ يَعْلَمُونَهَا ... فَإِنْ قِيلَ هَاتُوا حَقِّقُوا لَمْ يُحَقِّقُوا

في الشكوى والعتاب

قال المُغيرة بن حبناء [١] يعتب عن طلحة الطلحات الخزاعى [٢] تقصيره في عطائه :

لَقَدْ كُنْتُ أَسْعَى فِى هَوَاكَ وَأَبْتَغِى ... رِضَاكَ، وَأَرْجُو مِنْكَ مَالَسْتُ لاَقِيَا
وَأَبْذُلُ نَفْسِى فِى مَوَاطِنَ غَيْرُهَا ... أَحَبُّ، وَأَعْصِى فِى هَوَاكَ الْأَدَانِيَا
حِفَاظاً وَتَمْسِيكاً لِمَا كَانَ بَيْنَنَا ... لِتَجْزِيَنِى مَالاَ إِخَالُكَ جَازِيَا
رَأَيْتُكَ مَا تَنْفَكُّ مِنْكَ رَغِيبَةٌ ... تُقَصِّرُ دُونِى أَوْ تَحُلُّ وَرَائِيَا
أَرَانِى إِذَا اسْتَمْطَرْتُ مِنْكَ رَغِيبَةً ... لِتُمْطِرَنِى عَادَتْ عَجَاجاً وَسَافِيَا [٣]
وَأَدْلَيْتُ دَلْوِى فِى دِلاَءٍ كَثِيرَةٍ ... فَأُبْنَ مِلاَءً غَيْرَ دَلْوِى كَمَا هِيَا
وَلَسْتُ بِلاَقٍ ذَا حِفَاظٍ وَنَجْدَةٍ ... مِنَ الْقَوْمِ حُرًّا بِالْخَسِيسَةِ رَاضِيَا
فَإِنْ تَدْنُ مِنِّى تَدْنُ مِنْكَ مَوَدَّتِى ... وَإِنْ تَنْأَ عَنِّى تُلْفِنِى عَنْكَ نَائِيَا

---

[١] شاعر تميمى : من شعراء الدولة الأموية رائع المدح موجع الهجاء ، وكان أخوه صخر مثله فى طرفى الشعر ، و بين الأخوين منافرة ومهاجاة .

[٢] هو من أجواد المسلمين وفرسانهم ، واسمه عبيد الله بن خلف ولقب بطلحة الطلحات لورود طلحة فى نسب أبيه ونسب أمه .

[٣] العجاج : ما أثارته الريح من الغبار ، والسافى : ما دقّ من التراب .

وَقَالَ الْعَرْجِي [1] فى سِجْنِهِ يَشْكُو وَيَتَوَجَّعُ :

وَكَمْ مِنْ كَاعِبٍ حَوْرَاءَ بِكْرٍ ... أَلُوفِ السِّتْرِ وَاضِحَةِ التَّرَاقِى
بَكَتْ جَزَعًا وَقَدْ سُمِرَتْ كُبُولٌ ... وَجَامِعَةٌ يُشَدُّ بِهَا خِنَاقِى [2]
عَلَىَّ عَبَاءَةٌ بَلْقَاءُ لَيْسَتْ ... مَعَ الْبَلْوَى تُغَيِّبُ نِصْفَ سَاقِى
كَأَنَّ عَلَى الْخُدُودِ وَهُنَّ شُعْثٌ ... سِجَالَ الْمَاءِ يُبْعَثُ فى السَّوَاقِى
فَقُلْتُ تَجَلُّداً وَحَلَفْتُ صَبْراً ... إِلَى ذَا الْيَوْمِ مَا رُفِعَتْ أَمَاقِى
سَيَنْصُرُنِى الْخَلِيفَةُ بَعْدَ رَبِّى ... وَيَغْضَبُ حِينَ يُخْبَرُ عَنْ مَسَاقِى
وَتَغْضَبُ لِى بِأَجْمَعِهَا قُصَىٌّ ... قَطِينُ الْبَيْتِ وَالدَّمْثُ الرِّقَاقِ [3]
بِمُجْتَمَعِ السُّيُولِ إِذَا تَنَحَّى ... لِئَامُ النَّاسِ فى الشِّعْبِ الْعِمَاقِ

وقال طُرَيح بن اسماعيل الثقفى [4] يعتب على الوليد بن يزيد ، وكان من أقرب الناس إليه ، ثمّ آل أمره إلى السخط عليه ، فقال يعاتبه :

يَا ابْنَ الْخَلَائِفِ مَالِى بَعْدُ تَقْرِبَةٍ ... إِلَيْكَ أُقْصَى وَفِى حَالَيْكَ لِى عَجَبُ
مَالِى أُذَادُ وَأُنْهَى حِينَ أَقْصِدُكُمْ ... كَمَا تُوُقِّىَ مِنْ ذِى الْعُرَّةِ الْجَرِبُ

---

[١] هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان: شاعر غزل ظريف من أرقّ شعراء قريش، وكان مع غزله وظرفه فارسا جوادا، وكان مجافيا لمحمد بن هشام المخزومى خال هشام بن عبدالملك وأميرالمدينة من قبله ، وكان العرجى يشبب بأمه نكاية به فما زال يلتمس له العلل حتى أخذه فى تهمة فعذبه وألقاه فى السجن تسع سنين حتى مات. وسمى بالعرجى نسبة الى ضيعة له بالعرج من أرض الطائف.

[٢] الكبل : أضخم القيود ، والجامعة : غلّ يشدّ اليدين بعضهما الى بعض .

[٣] الدمث : السهول من الأرض .

[٤] شاعر من أشراف ثقيف ، كان مختصا بالوليد بن عبد الملك أثيرا عنده، ثم جفاه الوليد لهنة كانت منه فعاتبه بقصيدة ثم اعتذر اليه بأخرى فأعاده الى سابق عهده .

كَأَنَّنِي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ ... إِلٌّ[١] وَلَا خُلَّةٌ تُرْعَى وَلَا نَسَبُ
لَوْ كَانَ بِالْوُدِّ يُدْنَى مِنْكَ أَزْلَفَنِي ... بِقُرْبِكَ الْوُدُّ وَالْإِشْفَاقُ وَالْحَدَبُ
وَكُنْتُ دُونَ رِجَالٍ قَدْ جَعَلْتَهُمُ ... دُونِي إِذَا مَا رَأَوْنِي مُقْبِلًا قَطَبُوا[٢]
إِنْ يَسْمَعُوا الْخَيْرَ يُخْفُوهُ، وَإِنْ سَمِعُوا ... شَرًّا أَذَاعُوا، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعُوا كَذَبُوا
رَأَوْا صُدُودَكَ عَنِّي فِي اللِّقَاءِ فَقَدْ ... تَحَدَّثُوا أَنَّ حَبْلِي مِنْكَ مُنْقَضِبُ
فَذُو الشَّمَاتَةِ مَسْرُورٌ بِهَيْضَتِنَا ... وَذُو النَّصِيحَةِ وَالْإِشْفَاقِ مُكْتَئِبُ
أَيْنَ الذِّمَامَةُ وَالْحَقُّ الَّذِي نَزَلَتْ ... بِحِفْظِهِ وَبِتَعْظِيمٍ لَهُ الْكُتُبُ
وَحَوْكِيَ الشِّعْرَ أُصْفِيهِ وَأَنْظِمُهُ ... نَظْمَ الْقَلَائِدِ فِيهَا الدُّرُّ وَالذَّهَبُ
وَإِنَّ سُخْطَكَ شَيْءٌ لَمْ أُنَاجِ بِهِ ... نَفْسِي وَلَمْ آلُ مِمَّا كُنْتُ أَكْتَسِبُ
فَإِنْ وَصَلْتَ فَأَهْلُ الْعُرْفِ أَنْتَ، وَإِنْ
تَدْفَعْ يَدَيَّ فَلِي بُقْيَا وَمُنْقَلَبُ

وَقَالَ جَوَّاسُ بْنُ الْقَطْعَلِ الْكَلْبِي[٣] يَعْتِبُ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ :

صَبَغَتْ أُمَيَّةُ بِالدِّمَاءِ رِمَاحَنَا ... وَطَوَتْ أُمَيَّةُ دُونَنَا دُنْيَاهَا
فَاللهُ يَجْزِي - لَا أُمَيَّةُ - سَعْيَنَا ... إِذْ لَا تَعِزُّ وَضَارَبَتْ أَدْنَاهَا
أَأُمَيَّ رُبَّ كَتِيبَةٍ مَكْرُوهَةٍ ... خُزْرِ الْعُيُونِ عَلَيْكُمُ دَعْوَاهَا
كُنَّا وُلَاةَ طِعَانِهَا وَضِرَابِهَا ... حَتَّى تَفَرَّجَ عَنْكُمُ غُمَّاهَا

---

[١] الأل : العهد .   [٢] قطبوا : عبسوا .
[٣] كانت قبائل كلب أشدّ الناس نصرة لبنى أمية فى حروبها الأولى، فلما اطمأن الملك بالأمويين انحرفوا عن كلب الى قيس ، وكان جواس بن القطعل من أشدّ الناس بلاء فى سبيلهم، وكان فارس قومه وشاعرهم .

دَارتْ عَلَى قَيْسٍ رَحَانَا دَوْرَةً وَالْخَيْلُ تَنْبِذُ بِيضَهَا وَقَنَاهَا

وقال الأحوص يعتب على عمر بن عبد العزيز ، وكان عمر قد أقصاه وأدنى زيد بن أسلم .

أَلَسْتَ أَبَاحَفْصٍ هُدِيتَ مُخَبِّرِى أَفِي الحَقِّ أَنْ أُقْصَى وَيُدْنَى ابْنُ أَسْلَما

أَلَا صِلَةُ الْأَرْحَامِ أَوْلَى إِلَى التُّقَى وَأَظْهَرُ فى أَكْفَائِهِ لَوْ تَكَرَّمَا

وَكُنْتُ وَمَا أَمَّلْتُ مِنْكَ كَبَارِقٍ لَوَى قَطْرَهُ مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ غَيَّمَا

وَقَدْ كُنْتَ أَرْجَى النَّاسِ عِنْدِى مَوَدَّةً لَيَالِيَ كَانَ الظَّنُّ غَيْبًا مُرَجَّمَا

أُعِدُّكَ حِرْزًا إِنْ جَنَيْتُ ظُلَامَةً وَمَالًا ثَرِيًّا حِينَ أَحْمِلُ مَغْرَمَا

تَدَارَكْ بِعُتْبَى عَاتِبًا ذَا قَرَابَةٍ طَوَى الْغَيْظَ لَمْ يَفْتَحْ بِسَخْطٍ لَهُ فَمَا

فى الاعتذار

كان كعب الأشقرى لزيما لبنى المهلب مختصا بهم ، ثم انقطع عنهم إلى قتيبة بن مسلم ، فلم يجد من مثوبته ما وجد منهم ، فكتب إلى يزيد ابن المهلب :

يَا لَهْفَ نَفْسِى عَلَى أَمْرٍ شَقِيتُ بِهِ وَمَا شَفَيْتُ بِهِ غِمْرِى (١) وَأَحْقَادِى

أَفْنَيْتُ خَمْسِينَ عَامًا فى مَدِيحِكُمُ ثُمَّ اغْتَرَرْتُ بِقَوْلِ الظَّالِمِ الْعَادِى

أَبْلِغْ يَزِيدَ قَرِينَ الْجُودِ مَأْلُكَةً بِأَنَّ كَعْبًا أَسِيرٌ بَيْنَ أَصْفَادِ (٢)

فَإِنْ عَفَوْتَ فَبَيْتُ الْجُودِ بَيْتُكُمُ وَالدَّهْرُ طَوْرَانِ مِنْ غَيٍّ وَإِرْشَادِ

---

[١] الغمر : الضغن . [٢] المألكة : الرسالة .

وَإِنْ مَنَنْتَ بِصَفْحٍ أَوْ سَمَحْتَ بِهِ ... نَزَعْتُ نَحْوَكَ أَطْنَابِي وَأَوْتَادِي

وقال محمد بن زياد الحارثي يعتذر من المشيب :

وَتَكَرَّهَتْ شَيْبِي ، فَقُلْتُ لَهَا : ... لَيْسَ الْمَشِيبُ بِنَاقِصٍ عُمْرِي
سِيَّانِ شَيْبِي وَالشَّبَابُ إِذَا ... مَا كُنْتُ مِنْ أَجَلِي عَلَى قَدْرِ
مَا شِبْتُ مِنْ كِبَرٍ وَلٰكِنِّي امْرُؤٌ ... قَارَعْتُ حَدَّ نَوَاجِذِ الدَّهْرِ
وَتَنَفَّسَتْ بِي هِمَّةٌ وَصَلَتْ ... أَمَلِي بِكُلِّ رَفِيعَةِ الذِّكْرِ
جَشَّمْتُهَا نَفْسِي وَقُلْتُ لَهَا ... لَا تَجْزَعِي وَعَلَيْكِ بِالصَّبْرِ
فَتَجَشَّمَتْهَا حَقَّ شَاكِرَةٍ ... فِي الْعُسْرِ صَابِرَةٍ وَفِي الْيُسْرِ
فَلِذَاكَ صِرْتُ مَعَ الشَّبِيبَةِ نَازِلاً ... فِي غَيْرِ مَنْزِلَتِي مِنَ الْكِبَرِ

وقال زفر بن الحارث يعتذر من فراره يوم مرج راهط :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَبْقَتْ وَقِيعَةُ رَاهِطٍ ... لِمَرْوَانَ صَدْعاً بَيْنَنَا مُتَنَائِيَا
أَبَعْدَ ابْنِ عَمْرٍو وَابْنِ مَعْنٍ تَتَابَعَا ... وَمَقْتَلِ هَمَّامٍ أُمَنِّي الْأَمَانِيَا !
فَلَمْ تُرَ مِنِّي نَبْوَةٌ قَبْلَ هٰذِهِ ... فِرَارِي وَتَرْكِي صَاحِبَيَّ وَرَائِيَا
عَشِيَّةَ أَعْدُو بِالْقِرَانِ فَلَا أَرَى ... مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ عَلَيَّ وَلَا لِيَا
أَيَذْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ أَنْ أَسَأْتُهُ ... بِصَالِحِ أَيَّامِي وَحُسْنِ بَلَائِيَا
فَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى ... وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَا
فَلَا صُلْحَ حَتَّى تَنْحَطَ (1) الْخَيْلُ بِالْقَنَا ... وَتَثْأَرَ مِنْ نِسْوَانِ كَلْبٍ نِسَائِيَا
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تُصِيبَنَّ غَارَتِي ... تَنُوخًا وَحَيَّيْ طَيِّئٍ مِنْ سِنَانِيَا ؟

(1) تنحط : تزحر

وَقالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنَ كَعْبٍ يَعْتَذِرُ مِنَ الْجَزَعِ عِنْدَ الْمَصَابِ :

لَعَمْرُكَ مَا صَبْرُ الْفَتَى فِي أُمُورِهِ ... بِحَتْمٍ إِذَا مَا الْأَمْرُ جَلَّ عَنِ الصَّبْرِ
فَقَدْ يَجْزَعُ الْمَرْءُ الْجَلِيدُ وَتَبْتَلِي ... عَزِيمَةَ رَأْيِ الْمَرْءِ نَائِبَةُ الدَّهْرِ
تَعَاوَرُهُ الْأَيَّامُ فِيمَا يَنُوبُهُ ... فَيَقْوَى عَلَى أَمْرٍ وَيَضْعُفُ عَنْ أَمْرِ
وَعَيَّرْتُمُونَا أَنْ جَزِعْنَا وَلَمْ نَكُنْ ... لِنَجْزَعَ لَوْ أَنَّا قَدَرْنَا عَلَى الصَّبْرِ
صَبَرْنَا فَلَمَّا لَمْ نَرَ الصَّبْرَ نَافِعاً ... جَزِعْنَا وَكَانَ اللهُ أَمْلَكَ لِلْعُذْرِ

في الوصف

قال الأخطل [١] يصف سير الصحراء :

خَلِيلَيَّ لَيْسَ الرَّأْيُ أَنْ تَذَرَانِي ... بِدَوِّيَّةٍ يَعْوِي بِهَا الصَّدِيَانِ [٢]
وَأَرَّقَنِي مِنْ بَعْدِ مَا نِمْتُ نَوْمَةً ... وَعَضْبٌ جَلَتْ عَنْهُ الْقُيُونُ يَمَانِ [٣]
تَصَاحُبُ ضَيْفَيْ قَفْرَةٍ يَعْرِفَانِهَا ... غُرَابٌ وَذِئْبٌ دَائِمُ الْعَسَلَانِ [٤]
إِذَا حَضَرَانِي عِنْدَ زَادِيَ لَمْ أَكُنْ ... بَخِيلاً وَلَا صَبًّا إِذَا تَرَكَانِي
إِذَا ابْتَدَرَا مَا تَطْرَحُ الْكَفُّ فَاتَهُ ... بِهِ ذُو جَنَاحٍ كَيِّسُ اللَّحَظَانِ

---

[١] هو أبو مالك غياث بن غوث التغلبي النصراني شاعر بني أمية وأمير شعرائهم وثالث ثلاثة ملكوا قياد الشعر في العهد الأموي .

[٢] الدوية : الصحراء ، والصديان : مثنى صد ، أي ظمآن ، ويريد بهما الذئب والغراب .

[٣] عضب : مرفوع على الابتداء ، أي ومعي عضب ، والجملة حال .

[٤] العسلان : سرعة الحركة والسير .

يُباعِدُهُ مِنـــهُ الجَناحِ وَتارَةً   يُرَاوِحُ بَيْنَ الخطوِ وَالحَجلانِ

وقال يصف الخمر :

وَشارِبٍ مُرْبِحٍ بِالكَأْسِ نَادَمَنِي   لاَ بِالحَصُورِ وَلاَ فِيهَا بِسَوَّارِ (١)

نَازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ

صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْفَةُ السَّارِي (٢)

صَهْبَاءَ قَدْ كَلِفَتْ مِنْ طُولِ مَا عَنَسَتْ

فِي مَخْــدَعٍ بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارِ (٣)

عَذْرَاءَ لَمْ يَجْتَلِ الخُطَّابُ بَهْجَتَهَا   حَتَّى اُجْتَلاَهَا عِبَادِيٌّ بِدِينَارِ (٤)

كَأَنَّمَا المِسْكُ نُهْبَى بَيْنَ أَرْحُلِنَا   مِمَّا تَضَوَّعَ مِنْ نَاجُودِهَا الجَارِي (٥)

وقال الأحوص بن محمد الأنصارى يصف نفســه فى حالَىْ شبابه وشيبه :

نَزَلَ المَشِيبُ فَمَالَهُ تَحْوِيلُ   وَمَضَى الشَّبَابُ فَمَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

وَلَقَدْ أُرَانِي وَالشَّبَابُ يَقُودُنِي   وَرِدَاؤُهُ حَسَنٌ عَلَيَّ جَمِيلُ

[١] المربح الذى لايغير الشراب أخلاقه الجيدة ، والحصور : البخيل الضيق ، والسوار : المعربد الوثاب من السكر .

[٢] صياح الدجاج ، ووقفة السارى : كنايتان عن طلوع الفجر .

[٣] عنست الجارية : أى تأخرت عن الزواج زمنا طويلا ، وكلفت من الكلف ، وهو شدّة الحب ، وذلك كناية عن صفرة لونها .

[٤] العبادى : نسبة إلى العباد وهم قبيلة نصرانية فى الحيرة تحسن تعتيق الخمر .

[٥] الناجود : أول مايخرج من دنّ الخمر .

وَعَلَىَّ مِنْ وَرَقِ الشَّبَابِ وَظِلِّهِ غُصْنٌ تَفَرَّعَ فِي الغُصُونِ ظَلِيلُ
بَشَرٌ يَكُونُ مِنَ الحَرِيرِ وَ لِمَّةٌ مِثْلُ الجَنَاحِ وَعَارِضٌ مَصْقُولُ
فَاليَوْمَ وَدَّعَنِي الشَّبَابُ كَأَنَّنِي سَيْفٌ تَقَادَمَ عَهْدُهُ مَفْلُولُ
تُرْضِيكَ هَيْئَتُهُ إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ وَتَقُولُ حِينَ تَرَاهُ فِيهِ نُحُولُ

وقال حُمَيْدُ بن ثَوْر يصف حمامة تسجع :

مُطَوَّقَةٌ خَضْبَاءُ تَسْـجَعُ كُلَّمَا
دَنَا الصَّيْفُ وَانْزَاحَ الرَّبِيعُ فَأَنْجَمَا (١)
تَغَنَّتْ عَلَى غُصْنٍ عِشَاءً فَلَمْ تَدَعْ لِنَائِحَةٍ فِي نَوْحِهَا مُتَلَوَّمَا
فَلَمْ أَرَ مِثْلِي شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا وَلَا عَرَبِيٍّ شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمَا

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص يصف يوم صِفِّين (٢) :

فَلَوْ شَهِدَتْ جُمْلُ مُقَامِي وَمَشْهَدِي بِصِفِّينَ يَوْماً شَابَ مِنْهَا الذَّوَائِبُ
عَشِيَّةَ جَا أَهْلُ العِرَاقِ كَأَنَّهُمْ سَحَابُ رَبِيعٍ زَعْزَعَتْهَا الجَنَائِبُ (٣)
وَجِئْنَاهُمُو نَرْدِى كَأَنَّ صُفُوفَنَا مِنَ البَحْرِ مَدٌّ مَوْجُهُ مُتَرَاكِبُ
إِذَا قُلْتُ قَدْ وَلَّوْا سِرَاعاً بَدَتْ لَنَا
كَتَائِبُ مِنْهُمْ فَارْجَحَنَّتْ كَتَائِبُ (٤)
فَدَارَتْ رَحَانَا وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمُ سَرَاةَ النَّهَارِ مَا تُوَلِّي المَنَاكِبُ

---

[١] أنجم : ظهرت نجومه . [٢] حرب بين عليّ ومعاوية .
[٣] زعزعتها : فرّقتها ، والجنائب : جمع جنوب ، وهى المقابلة لريح الشمال .
[٤] ارجحنت : اهتزّت لكثافتها وثقلها .

فهرس

صفحة


808.1:A25zA:c.1
عفيفى ،عبد الله
زهرات منثورة في الادب العربي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031749


AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت